مطبوعات أخبار اليوم

قطاع الثقافة

الولد الشقى فى السجن

محمود السعدنى



مطبوعات أخبار اليوم
قطاع الثقافة

الولد الشقى فى السجن

محمود السعدنى

دار اخبـــار اليوم
قطاع الثقافة

جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة
القاهرة

تليفون/ فاكس
٥٧٩٠٩٣٠

تصميم الغلاف : أشرف حسين

الرسوم الداخلية : أسامة نجيب

الولد الشقي في السجن



الفصل الأول

أبو سداح

القتل صفة حيوانية ، نقلها الانسان عن الحيوان ، والحروب نوع من القتل الجماعى ، وهو وقف على الانسان ، ولكن براءة الاختراع تبقى من حق الوحش . كل ما أضافه الانسان ، انه نظم عملية القتل ، جعل منها قانونا ونظاما . ووزع الرتب والنياشين ، وجعل من القاتل بطلا ، ومن المقتول شهيدا ، ولكن يبقى الوحش بعد ذلك ، أكثر انسانية من الانسان ، اذا قورن فعل الوحش بفعل الانسان الذى اخترع احقر وابشع اداة للتعذيب وهى السجن !

هل رأيتم قبل الآن ، اسدا يحبس اسدا ويقيم هو خارج العرين ، يأكل ويشرب ويتمطى ويتجول فى الغابة ؟

هل رأيتم اسدا يحبس فيلا أو نمرا أو حتى غزالا ؟

الاسد يصفى حساباته بسرعة ، يمزق فريسته اربا ويرميها بعد دقائق ، ولكن الانسان ، اخترع زنزانة ، وحول السور حراس ، وهى عملية قتل

للمسجون على مراحل ، انها الموت نفسه ولكن بالتقسيط المريح !

ولكن أحقر ما فى السجن هو السجن الانفرادى غير ان الذين جربوا السجون مع الاخرين ، يكتشفون بعد فترة ان للسجن الانفرادى ميزة . ولأنه ميزة ، فهو وقف على المسجونين فى قضايا رأى . أو قضايا قتل ، أو أية قضايا اخرى ، شرط ان يكونوا من الاثرياء الممتلئين !

ولقد سجنت عدة مرات . ولكن لم تتح لى الظروف أن أرى السجن الحقيقى . . الا فى المرة الأخيرة ففى المرات السابقة ، كنت واحدا من الوف رجال الصحافة والاعلام ، والمشتغلين بالرأى وأمور السياسة . ولم أتعرف رغم محاولاتى الكثيرة على مسجون واحد من هذا الصنف الذى اعتاد الاجرام وأصبح التردد على السجون بعض مشاكله ، وبعض هواياته !

ولكن فى سجنى الاخير ، قدر لى أن أتعرف على عالم ، كنت أذهب الى قبرى حزينا لو مت دون أن أراه . عالم النشالين والقوادين واللصوص ، حثالة القاهرة يضمها سجن واحد !

ففى يوم ١٦ ديسمبر ١٩٧١ ، حملتنى سيارة مع بعض المحكوم عليهم الى سجن القناطر ، وهو سجن أكثر قسوة من سجن الباستيل ، لانه خداع . مظهره من الخارج يوحى بأنه مكان شاعرى ، يصلح لتجول العشاق والمحبين ، فأشجار السرو العالية تخفيه عن العيون ، وأشجار الجميز العتيقة تحف به من كل جانب ، والرياح المنوفى يتهادى تحت أقدامه معشوشبا مخضوصرا منحدرا نحو الشمال .

ولكن الذى يلج البوابة الخارجية ، سيحد نفسه فجأة فى مكان أشبه بمعسكرات الاعتقال . اسوار غليظة تعزل السجن عن العالم ، وأبراج حراسة مزودة بالكشافات ، والحراس مزودين بالمدافع الرشاشة . وفى فناء السجن يتجول الحراس وقد نزع النظام الصارم المفروض على السجن قلوبهم من صدورهم وتسلحوا بالعصى الغليظة ، والسياط . ومع الحراس تتجول عشرات من الفئران الضخمة التى تفر القطط من أمامها وتفسح لها الطريق ، وتضرب لها تعظيم سلام . وهى تقرض كل شىء . خشب المكاتب والمقاعد وأبواب الزنازين ، وتتحول فى النهاية الى طعام يشارك فى حل أزمة اللحوم فى داخل السجن . فالمسجونون القدماء ينصبون الفخاخ . . لصيدها وشيها على النار . . وأكلها .

ويقسم الذين شاركوا فى وجبة الفئران هذه انها الذ ألف مرة من اللحوم التى تقدمها ادارة السجن .

وبالرغم من انى لم اذق طعم الفئران ، الا انى استطيع ـ وانا مرتاح الضمير ـ ان اقسم معهم . فهذا الشىء الذى تجلبه الادارة تحت اسم لحم . . لايمكن ان يكون لحما ، الا اذا كان وارد المقابر . والافدلونى على لحم يباع فى أى مكان على أرض مصر ثمنه ثلاثون قرشا مصريا للكيلو الواحد ، فى الوقت الذى يباع فيه خارج السور بجنيه ونصف . أما الطبيخ فهو مزيج من أعشاب وتراب وطين وأشياء اخرى لا داعى لذكرها . اما الحراس فهم بقايا العهد الانجليزى الملكى عندما كانت السجون تتبع الخاصة الملكية ، وكانت الاشغال الشاقة هى العمل فى مزارع الملك . وحتى الاصلاحيات التى قامت بها الثورة لم تلق ترحيبا من جانب هؤلاء الحراس . ولقد قاوموا فى البداية ثم استسلموا مقهورين . ولقد نفخ احدهم فى وجهى ذات صباح وهو يبثنى شكواه من الحال السيىء التى آلت اليه السجون بعد الثورة :

ـ هيه دى سجون ، دى جناين ، زمان كان الخير كثير ، وكانت السجون سجون ، وحياة سيدى المدبولى . العسكرى مننا كان يقتل المسجون ويدفنه ولا من درى ولا من شاف !

ولكن بعد فترة اكتشفت ان هؤلاء الحراس ليسوا بهذه الدرجة من الاهمية التى يدعونها احيانا ، وانهم اكثر غلبا من المساجين أنفسهم ، وأكثر منهم تعاسة . وأن الحل والربط فى يد عتاة المجرمين داخل السجن . هم الذين يسيطرون على السجن ويديرون الامور فيه على هواهم . وفى استطاعة أى مسجون عادى ومستعد لدفع الاتعاب أن يمزق أوراقه داخل السجن . . وفى استطاعته أيضا أن يخرج أفراحا قبل الموعد . بل وفى استطاعة أى مسجون ثرى لايرغب فى تحدى القانون ، وفى الوقت ذاته يريد أن يعيش حياته . . أن يصنع مايحلو له داخل السجن وخارجه فهو ينام مرة كل اسبوع مثلا فى بيته . وهو يعيش داخل السجن بشكل أفضل من العيشة التى يحياها مدير السجن فى الخارج . وبعض تجار المخدرات الذين يقضون مدة العقوبة يستخدمون داخل السجن اكثر من خادم . وبعضهم يقضى المدة كلها داخل مستشفى السجن ، حيث يقضى الليل كله فى لعب الورق وتدخين الحشيش ، ويقضى نهاره نائما يحلم احلاما

لذيذة ، اما طعام هؤلاء فهو وارد الخارج دائما وسجائره من صنف امريكى ممتاز . . وثيابه من أفخر الاقمشة وان كان لها شكل ملابس السجن .

واكتشفت ايضا انه لولا اكراميات هؤلاء المساجين الاثرياء لمات بعض الحراس جوعا . وتستطيع ان تحل مشاكلك كلها اذا لجأت الى العصابة ، وتضيع تماما اذا لجأت الى الادارة ، وكل شيء له عند العصابة ثمن . العيشة الطيبة لها ثمن ، الخروج من السجن له ثمن ، السهر خارج الزنزانة له ثمن ، وحتى قتل احد اعدائك داخل السجن له ثمن ، ولكن حذار ان تتعامل مع العصابة ، ثم تتوقف ، وحذار ان تعد ثم تخلف ، وحذار ان تحدد لهم ثمنا ثم تدفع اقل ، فهؤلاء المجرمون ، قطاع طرق ، قتلة بنى ادم ، مصاصو دماء البشر ، الى اخر هذه الاوصاف والالقاب والنعوت ، لايستخدمون فى المعاملة ايصالات او شيكات . . ولكن تكفيهم كلمة شرف !

أغرب شيء ان الواحد فيهم اذا وعد وعدا فهو على استعداد لان يفقد روحه فى سبيل تنفيذه . وهم جميعا ، والقتلة منهم خصوصا ، يتصرفون كأنبل فرسان العصور الوسطى !

ولقد وعدنى احدهم مرة بشراء لحوم من الخارج ، ونجح فى جلبها داخل السجن ، ولكنه أثناء قطعه للفناء فى طريقه الى العنبر ، فوجىء بموكب تفتيش على رأسه وكيل مصلحة السجون ومدير السجن وكل هيئة الضباط ، ولما كان الشيء الذى يحمله بدوى ـ هذا اسمه ـ يبدو مريبا ، فقد فتشوه وصادروا اللحم ثم أرسلوه الى التأديب ليقضى فيه اسبوعا . ولكن بدوى سعى بعد ذلك حتى حصل على كمية اللحم المطلوب ومن نفس الصنف ، ورفض ان يتقاضى مليما ، لأنه كان قد تقاضى ثمن اللحم المصادر ، قيم ربما اختفت فى الحياة خارج الاسوار ، ولكنهم داخل الاسوار ما زالوا يحافظون عليها !

واكتشفت ايضا أن السجن جزء من الحياة ، ومايجرى خارج الاسوار ، يجرى مثله وبالضبط فى السجن . واذا كان خارج السجن أثرياء يموتون من التخمة ، وفقراء يموتون من الغم ، واذا كان فى الخارج اصحاب نفوذ واصحاب عيا ، واذا كان هناك ابناء اكرمين وابناء كلب . . واذا كان هناك تسيب وسرقة ونهب ونصب ، واذا كان هناك فساد واشياء لاترضى الرب ولا ترضى العبد ! ففى السجن ايضا تدور هذه الاشياء بالتمام

والكمال وبتركيز أشد ، مع فارق بسيط ، هو ان نزلاء السجن أصدق وأشرف .

ففى الخارج يرفع النصاب عادة شعار الشرف ، ويرتدى الجبان زى الشجاعة ، ويتغنى البخيل بالكرم . ويتشح السافل بمكارم الاخلاق ، ولكن فى السجن ، كل شيء ظاهر ومكشوف وعلى عينك ياتاجر ! وهم عندما ينادون الاخرين ، ينادونهم بأسمائهم وصفاتهم دون تزويق ولا رتوش ، فاروق النصاب ، واسماعيل القواد ، وسيد الحرامى وابراهيم مخدرات !

وهأنذا الآن ، وبعد أن ترددت على جميع السجون الحربية منها والمدنية ، وبعد ان ذقت جميع انواع الصفعات والشلاليت ، ومارست الاشغال الشاقة فى صحراء الواحات ، استطيع أن أقول وأنا مرتاح الضمير ، ان السجن ليس رادعا وليس وسيلة للعقاب . لقد اخترع الانسان السجن ليقضى على الجريمة ، ولكن هاهو السجن قائم ، والجريمة موجودة ، يسيران معا ، جنبا الى جنب . . ولا يلتقيان ، كأنهما شريط سكة حديد ، يكملان بعضهما ولايتعارضان .

واعتقد ان الانسان لابد أن يسعى لاختراع بديل اخر ، اذا أراد أن يقضى على المجرمين . . والاجرام !

وشيء آخر . نزلاء السجون فى بلد كمصر ، هم هم لا يتغيرون ، دليل ان المجتمع ثابت لايتحرك ، والاوضاع السائدة فيه تجعل الناس أشبه شيء بقطع الشطرنج . . احصنة وبعضهم عساكر ولاسبيل الى تبادل المراكز ، أو تغيير الادوار .

ثم شيء آخر . . وأخير . . لقد كان القصد من بناء السجن ، كما هو مكتوب عليه بحروف بارزة أعلى البوابات ، وعلى الاسوار « السجن ، تأديب ، وتهذيب ، واصلاح » ولكن يبدو ان الاعمال ليست بالنيات فى مصلحة السجون ، لأن السجن تحول بالفعل الى تحطيم ، وتعذيب ، وافساد .

على أية حال ، لقد ترددت على السجون ثلاث مرات . وعندما استقبلنى عم عبدالقادر شاويش سجن القناطر اخر مرة ، صاح فى وجهى بانفعال صادق . . « ايه ده يابيه ، انت جت تانى ، انتو بقيتوا عاملين زى الحرامية ، ساعات بيخرجوا ، لكن دايما بيرجعوا تانى » !

ولست نادما الآن على شيء مما حدث . ولا أذكر من تلك الأيام الا الاشياء الجميلة ، والذكريات الحلوة ؟ اما الاساءة والاهانة فقد تركتها مع ملابس السجن عند الباب . ولقد حضرت عدة شخصيات فى نفسى - التقيت بها ذات يوم فى سجن القناطر - قتله ولصوص وقطاع طرق ونشالين ومتشردين ، حسنى ابو سداح ، وفتحى الشرقاوى ، وعاشور ، وبدوى ، ومصطفى الكرداسى ، وسيد السورى ، وعلى ابو الغيط ، كل منهم يصلح فصلا ، وكل منهم له حكاية ، وكل منهم ، لو لدينا حركة فنية حقيقية لصار فيلما يكسب الاوسكار !

وسأحاول قدر الطاقة ان اكتب ماوعت الذاكرة عن كل منهم . وان اقدم مااحتفظت به النفس من ملامح لنفسيات هؤلاء الرجال الذين حكمت عليهم الظروف ان يقضوا العمر فى زنازين ضيقة خلف اسوار عالية ، ومع حراس أغلب الظن انهم سيحشرون يوم القيامة فى زمرة الحمير ! .

وتسألنى ، وماذا استفدت من السجن ؟ وأقول لاشىء . . فالسجن ليس تجربة مفيدة ، لان التجربة الحقيقية فى الخارج ، حيث الحياة عريضة والحركة سريعة ، والاختبارات متعددة ، ولكن السجن ، يوم واحد ، ممل ، ومكرر وكئيب ، غير انى استطيع ان اقول أيضا ، ان تجربة السجن مفيدة ، وضرورية ، بشرط أن تحدث مرة واحدة ، ولفترة قصيرة !

بقى ان أقول ، انى دخلت السجن ثلاث مرات ولأسباب سياسية ، وفى ظل نظام واحد ، ولثلاثة اسباب تختلف ، أو من أجل ثلاثة مواقف متعارضة .

فى المرة الاولى ، فى فجر شبابى سجنت ، لانى ضد الحكومة ، فى المرة الثانية سجنت لانى - مثل طنجة - على الحياد . لا مع الحكومة ولا ضد الحكومة ! فى المرة الاخيرة سجنت لانى مع الحكومه ؟ كالموت يدرككم أينما تكونوا ، كالخزف ويل له ان وقع على الصخر ، وويل له ان وقع الصخر عليه .

وكان اول من عرفته هو حسنى ابو سداح ، وهو مجرم عريق مارس كل أنواع الاجرام ، بدأ نشالا ثم مشاغبا ثم رئيسا لعصابة تخطف الاطفال ، ثم تاجر مخدرات ، ثم أصبح السجن محله المختار والاجرام صفته ووظيفته . وهو طاف بكل السجون والليمانات . من ليمان طره الرهيب الى

ليمان ابو زعبل ، حيث الخارج مولود والداخل مفقود . وعندما فتح باب زنزانتي والقى نظرة حاطفة على الوافد الجديد ، كان قد انقضى عليه وراء أسوار السجن ثلاثون عاما بالتمام والكمال .

كان حسني ابو سداح مغضن الوجه ، بارز الوجنات ، عيناه باهتتان ساكنتان محدقتان فى لاشيء كانهما عينا سمكة ميتة ! وعندما خطا خطواته الاولى داخل السجن ، كانت الحرب العالمية الثانية على اشدها والمعارك الطاحنة تأكل زهرة شباب العالم ، والنار مشتعلة فى جوانب العالم الأربعة . ثم انتهت الحرب العالمية ، ونشبت حرب فلسطين ، ثم احترقت القاهرة . ثم قامت الثورة ، وخرج الملك فاروق مطرودا ، وجاء محمد نجيب ، ثم خرج محمد نجيب وجاء عبدالناصر ، وحدث عدوان ١٩٥٦ ، وقامت الوحدة ، وفشلت الوحدة ، ودارت الحرب فى اليمن ، ثم جاء عدوان ١٩٦٧ ، ثم جاءت حرب الاستنزاف ، ثم سكتت المدافع فترة ، ورحل جمال عبدالناصر وجاء أنور السادات . كل هذا حدث ، وحسني ابو سداح فى السجن لايدرى شيئا عما يدور خارج الاسوار .

الحكومة عنده هى مأمور السجن ، والشعب هم النزلاء ، ولكن حكومة مصر التى خارج السور ، فعلمها عند ربى ، وسيأتى يوم تأتى فيه الحكومة هنا فى السجن ، هكذا حدث من قبل ، وحدث اكثر من مرة ، وهو لايعرف السبب ولا يدرك الحكمة ، ولكن هكذا حدث وهكذا يحدث . .

ـ ومفيش حد يا استاذ أحسن من حد ، احمد زى الحاج احمد ، وكل شويه بيجيبوا حكومة يسجنوها هنا .

ـ تصدق بالله ، ان وزير الداخلية اللى فات كان مسجون معايا هنا ، وكان بيحششش معايا ، راجل اخر مزاج . هكذا بدأ حسني ابو سداح حديثه معى ، عندما عرف انني مسجون سياسى وان تهمتى هى محاولة قلب نظام الحكم .

ـ أهو انت من غير مؤاخذة غشيم ، لو انا مطرحك كنت قلبته ، وعلى كل ، مايهمكش ، مفيش حاجة بتفضل على حالها ، كل شيء ينقلب . حكمة ياastاذ !

عصير الحكمة التى وصل اليها ابو سداح انه لاشيء يبقى ، ولا دوام لاى شيء. كل شيء يقوم ومعه عوامل فنائه . وكل شيء الى زوال ، ولو دامت لغيرك ماوصلت اليك .

ـ تصدق بالله ، كان فيه واد ضابط فى سجن طره عامل قمع قوى . وكان موقف السجن على رجله . اتنقل م السجن وفات شهرين وبصينا لقيناه داخل علينا ، مسجون زينا .

ويصمت أبوسداح صمتا بليغا ، ويلعق شفتيه بلسانه ثم يجذب نفسا عميقا من السيجارة قبل ان يستطرد :

ـ تصدق بالله ، نهار مادخل السجن اخذ ضرب على قفاه مايخدوش حرامى فى مولد .

كان ابو سداح قد اكتسب حقوقا داخل السجن . بسبب خبرته وعشرته الطويلة . .

كان قد أصبح وكيل سجان ، يحمل عنه المفاتيح ، ويجبى الاتاوات المفروضة على المساجين « عشان الافندى السجان » ! وكان اول من يخرج من الزنزانة فى الصباح ، واخر من يدخل فى المساء . وكان صديقا لكل الحراس ، فهو اقدم من الجميع ، وكان موضع احترام من الضباط ، لأن البيه مدير السجون ، تعلم الاعيب السجن وعرف خباياه على يد ابو سداح .

وكان يتاجر فى اللحوم والبقول داخل السجن ودائما كان يوزع الحشيش على اصحاب المزاج . وكان يربح كثيرا دون ان يتعرض مرة واحدة للعقاب . ففى كل مرة تضبطه ادارة السجن ، كان يخرج براءة . لان المادة التى وجدت فى حوزته ، كانت خالية تماما من مادة الحشيش ، وكانت اعماله الواسعة المتعددة تستغرق وقته كله ، ولكنه احيانا كان يختلس لحظات قليلة يستريح فيها ، وعندئذ كان يلجأ لاحد المساجين الذين يجيدون القراءة والكتابة ليكتب له عريضة لرئيس الجمهورية ، ولم يكن يقبل أقل من رئيس الجمهورية ليرفع اليه شكواه . وكانت شكواه تنحصر فى انه رجل عجوز وانه قضى فى السجن دهرا طويلا ، وان كل مايرغب فيه هو قرار جمهورى بالافراج عنه حتى يتسى له ان يموت فى بيته وبين اهله .

واحيانا كنت أسأله بعد ان اكتب مايمليه على :

ـ وبيتك فين ياعم حسنى ؟

وكان يصمت فترة ، ثم يقول :

ـ والله مانا واخد بالى يافندى ، اهو كان فى حته كده فى مصر ، وبعدين

سمعت انهم هدوه ، اصل الجماعة بتوع الثورة هدوا مصر كلها ، بيقولوا انهم عملوا كورنيش ، صحيح الكلام ده يافندى .

والحقيقة ان حسنى ابو سداح لم يكن له اى بيت ، ولم يكن له أى اهل . وعندما دخل السجن كان له اخ غير شقيق ظل يزوره بانتظام لمدة سنتين ، ثم تباعدت الزيارات بعد ذلك ، ثم انقطعت تماما واكتفى بالمراسلة ، ثم انقطعت المراسلات بينهما وانقطعت اخباره تماما . وبعد اعوام طويلة سمع ابو سداح بالصدفة خبرا عن اخيه ، كان فى محكمة مصر القديمة ، عندما شاهد رجلا فى المحكمة كان يسكن الى جوارهم .

وعندما سأله عن شقيقه وأين ذهبت به الايام ، قال الرجل كلاما مبهما مضغوطا ، فقد كان الرجل عجوزا ، وكان ضعيف البصر ، ثقيل السمع وربما لم يسمع بالضبط سؤال ابو سداح ، وربما لم يحدد بالضبط من يكون السائل ، ولكن ابو سداح فهم هكذا بالفهلوة وبالحداقة .

ـ مات فى بورسعيد سنة ٥٦ ايه اللى وداه هناك ماعرفتش . . احيانا اخرى كان ابو سداح يذكر طفولته ، فى تلك اللحظات كانت تتغير ملامح وجهه فتأخذ شكلا احسن ويصبح أكثر وسامة ، واكثر نضارة . كان يذكر امه بالخير .

ـ ست طيبة الله يرحمها . .

دوختها معايا ، لكن كنا عيال بقى هانعمل ايه .

ويضحك أبو سداح ، ويفتح فما واسعا مهجورا تبدو فيه بعض الضروس المتأكلة التى دب فيها السوس ، ثم يضرب جبهته براحة يده ضربة خفيفة :

ـ مرة راحت طلعتنى من قسم البوليس كانوا مسكونى تحرى . . ولطمت على وشها لما ورم ، وقالت لى ، حتموت قتيل ياحسنى ، ومش هاعرف طريق جرتك فين ، كانت مرة طيبة وعلى نياتها .

وعندما كانت تتأزم به الامور وتأخذ المشاكل بخناقه ، ويضيق صدره بسبب الغل والغيظ ، كان يغلق على نفسه باب الزنزانة ويبكى كالطفل الصغير . ذات صباح ضبطته متلبسا وهو يبكى وحيدا فى زنزانته الخالية من الاثاث ، ولما سألته عن سبب بكائه ، مسح دموعه بيده ، ورسم ابتسامة زائفة على شفتيه ، وقال :

ـ ابدا . . ولاحاجة ، انا اصلى افتكرت أمى ماتت وانا فى السجن ،

ولاشفتهاش .

ولكن حسنى ابو سداح ، يصبح أسعد مايكون يوم الاربعاء ، والسبب ان يوم الاربعاء هو يوم وصول الايراد . والايراد هم السجناء الجدد الذين صدرت ضدهم احكام بالسجن ، وغالبا يكون هؤلاء السجناء من شبان تتراوح اعمارهم بين السادسة عشرة والعشرين ،

وفى صباح يوم الاربعاء كان حسنى ابو سداح يرتدى افخر ملابسه ، ويخرج لمعاينة طابور السجناء الجدد ، وبعد فحص طويل والقاء نظرة مجرب عجوز ، كان يقع اختياره على صيده الجديد ، وغالبا يكون شابا قويا مفتول العضل . ودائما يحضر ابو سداح امام مكتب المأمور ، ثم فجأة . . يخلع ملابسه حتى يصبح كما ولدته امه . ويلقى بنفسه على الولد الذى وقع اختياره عليه ، ويصرخ ابو سداح ولا صرخة عنتر فى حرب القبائل . ويتوقع السجناء يوما اسود ، فاما ان يحصل ابو سداح على مايريد ، أو تصير مذبحة فى السجن ، ويصبح يوم المأمور والضباط والسجناء أسود من العنبر ، واثقل من ليل العاشق المكسور ! .

وكان ابو سداح دائما يظفر بصيده ، ثم يقضى يوما أو يومين فى هدوء واستمتاع ، ولكن سرعان ماتنشب الخناقات بينه وبين الشاب القوى ، خصوصا عندما يكتشف الشاب انه كان ضحية مقلب كبير بقبوله عرض ابو سداح . وان هناك عروضا اكثر اغراء . وعندما يرحل الشاب من زنزانة ابو سداح ، وهو دائما ينجح فى الرحيل ، بمساعدة الاقوياء الذين يرغبون فيه ، كان ابو سداح يقضى الليل بطوله متشعلقا كالقرد فى حديد النافذة ، يصيح بكلام يقذفه كالحمم ، يسب الحكومة والسجن والزمن الغادر ، ثم لايلبث ان ينسى ، ويهدأ ويعود الى عمله الذى اعتاده منذ ربع قرن داخل عنابر الليمانات والسجون .

وعندما يكون السجن هدفا لزيارة ضيوف اجانب ، كان ابو سداح يبدو اسعد الجميع . لأنه كان السجين الوحيد الذى يسمح له بالبقاء خارج الزنازين . وفى العادة يصحب الضيوف ضابط كبير من مصلحة السجون . ودائما يكون هذا الضابط على علاقة صداقة بأبو سداح ، فاذا جاء الضيوف خف اليهم ابو سداح يحييهم فى ذلة تدرب عليها واتقنها ،

وكان الضابط الكبير المسئول يتابع معه الحديث فى ود ، يسأله عن احواله ، وأحوال السجن ، وما آل اليه حال المساجين ، وكان ابو سداح

يرد بكلام كله نفاق للادارة ، وكيف ان الامور عال ، والاحوال حسنة ، وكل شيء على مايرام . ثم يتطوع ايضا برواية قصة امام الضيوف ، وكيف كان وحشا ادميا . . هاتكا للاعراض ! قابضا للارواح ! خاطفا للاطفال ! وكيف ان السجن علمه وهذبه وادبه فاحسن تهذيبه !

ثم يختتم روايته بطلب للضابط الكبير ان يأمر بتحويل الدوسيه الخاص به الى رئيس الجمهورية ليأمر بالافراج عنه فورا ، حيث انه قضى نصف عمره بين القضبان والاسوار ، والزنازين !

وكانت هذه هى مهمة ابو سداح ، وهذه هى صفته الوحيدة بالنسبة لمصلحة السجون . عينة حية تثبت حسن سير المصلحة ، وشهادة « حق » يشهد بها شاهد من اهل الخطيئة والاجرام .

وهى شهادة كاذبة من الاساس ، ومن شاهد زور ، ولكن لكل شيء ثمن ! وكان الثمن الذى يحصل عليه ابو سداح عقب كل زيارة ، هو عدة صناديق من احقر السجاير ، ثم التغاضى بعد ذلك عن كل مايرتكبه داخل السجن من مخالفات .

وكان هو عقب كل زيارة ، يحكى للناس فى السجن تفاصيل المقابلة ، وكيف صاح فى وجه الضيوف يطالب بحق المساجين ، وكيف لعن ابو الضابط ورئيس المصلحة ، ورئيس الحكومة . وكيف ان الضيوف صفقوا له اعجابا واحتراما . ثم كيف وصل الخبر الى رئاسة الحكومة ، وكيف طلبوا « دوسيه » ابو سداح فى الحال ! وكيف خاف المأمور من الفضيحة ، وخاف من بطش أبو سداح ، فأرسل له صناديق السجاير لعله يعطف ويرضى .

وفى كل مرة يحكى فيها أبو سداح المقابلة ، كان يضيف أشياء ويضع بعض الرتوش واللمسات . واحيانا كان يمعن فى المبالغة ، وينسى نفسه تماما ، فيحكى ، كيف تطورت المناقشة ، وكيف وضع اصبعه فى عين الضابط ، ثم كيف تدخل احد الضيوف فرماه ابو سداح على الارض ! وكيف خاف المأمور عاقبة الامر ! فجرى هاربا من الفناء الى مكتبه ، وكيف اتصل بمدير مصلحة السجون طالبا النجدة ، وكيف رد مدير المصلحة عندما علم بالامر :

ـ ماحدش له دعوة بأبو سداح ، دا الراجل بتاعنا . ثم يصمت ابو سداح قليلا ، ثم يعلق بهدوء . .

ـ امال ايه ، ماهو كلامه مضبوط ، دنا دخلت المصلحة قبل منه ، هو بقى

لواء ، وانا لسه مسجون ، مش دا طبيخ ؟
وكان ابو سداح يختفى احيانا فلا يدرى احد اين ذهب ، وغالبا يكون قد اختار لنفسه مهنة جديدة داخل السجن ، تتيح له السهر فى الفناء او فى ورشة النجارة ، فيقضى نهاره نائما . وليلة ساهرا ، وكان يبدو فى اسعد لحظاته عندما يعثر على عمل من هذا النوع .
- امال يااستاذ ، أحلى شغل فى السجن ، شغل الليل ، ماتشعرش انك مسجون . تعرف ، فى السجن من حقك تشوف النهار ، طابور شمس مش كده ؟ لكن الليل ممنوع عليك . عرفت ايه بقى معنى السجن ؟ ماتشوفشى الليل !
وذات مرة ، غاب ابو سداح ثم ظهر فجأة ، وكان الغضب ينهش قلبه ، ويداه ترتجفان ، عندما اقتحم زنزانتى على غير موعد ، وقال وهو يكاد يجن :
- كشف الافراج بتاع ٢٣ يوليو وصل السجن واسمى مش فيهم . وأصل الحكاية ان الحكومة تفرج فى عيد الثورة عن المساجين الذين قضوا نصف المدة ، بشرط ان يكونوا حسنى السير والسلوك .
وفى كل عيد كان ابو سداح ينتظر كشف الافراج ، وفى كل مرة كان يجده خاليا من اسمه ، ورغم تأكد ابو سداح ان شروط الافراج لا تنطبق عليه . الا انه كان ينتظر الكشف ، ثم يصر على ان يراه بنفسه ليتأكد من عدم ورود اسمه . وبالرغم من ان المسألة بسيطة ورغم ان الافراج يتم بشرط ، وأن هذا الشرط لاينطبق على حالة ابو سداح من قريب أو بعيد .
خصوصا شرط نصف المدة ، لان ابو سداح محكوم عليه بأكثر من مائة عام . وان كان احد لايستطيع ان يعرف كم عدد السنين المحكوم بها عليه ، ولأن الحكم بالسجن المؤبد صدر ضده اكثر من ثلاث مرات ، عدا احكام اخرى تتراوح بين عشر سنوات وخمس سنوات !
شرب ابو سداح كوب الشاى الذى قدمته له ، وكان قد انتهى من رواية كشف الافراج واسمه الذى لم يزين الكشف ، ثم قال لى بلهجة طبيعية للغاية :
- وشوف وشك بخير بقى .
وعندما سألته عما اذا كان ينوى الانتقال الى سجن آخر قال بنفس اللهجة الهادئة :

ـ ابدا ، انا هاريح نفسي خالص ، هانتحر . ورحت اشرح له كيف ان الانتحار هروب من مواجهة الواقع ، وجبن فى تحمل المصير ، وكيف ان موته يترك اثرا حتى فى ضمير الذين قتلوه ، لان امثاله ليسوا اكثر من مجرد اسماء فى ورق ، اثباتها مثل محوها . عندئذ هب صائحا محتجا :

ـ كلام ايه دايا استاذ ، دنا عيلتى بره تأكل اللحمة نيه . وتصورت بالفعل انه يقول الحقيقة ، فربما كان وراءه افراد من اسرته ، مجرمون عتاه يستطيعون الاخذ بالثأر ولكن فوجئت به يقول :

ـ أنا عيلتى كلها ناس بهوات واكابر . احمد ابو سداح كان وزير . والشيخ على ابو سداح كان شيخ الازهر ، وابراهيم ابو سداح كان ثورجى كبير قوى ، هوه اللى عمل الثورة بتاع عبدالناصر . ولم يهدأ انفعاله ، الا عندما تظاهرت له بأننى اعرفهم ، واننى التقيت ببعضهم فى الخارج . عندئذ طابت نفسه واستراح . وقال وهو يشعل لنفسه سيجارة :

ـ امال يا استاذ ، واللى خلق الخلق لازم اخلى المأمور ده يندم ، ويقول ياريت اللى جرا ماكان ، ان ماخدوه فى حديد ، ما بقاش أبو سداح . وعندما استأذن فى الانصراف ودعته والحزن يطل من عينى وصوتى يخنقه الانفعال .

وعلى باب الزنزانة ، توقف ابو سداح لحظة وقال :

ـ بقولك ايه . . ادينى علبتين سجاير عشان عاوز أقعد لوحدى فى الزنزانة افكر قبل ما اموت !

وانتشرت قصة انتحار ابو سداح فى السجن انتشار النار فى الهشيم ، حتى الحارس المكلف باغلاق الزنازين . صاح بعد ان احكم اغلاق زنزانة ابو سداح :

ـ أبقى سلم لى على ابويا اما تروح الجنة يا أبو سداح . ورد ابو سداخ من داخل الزنزانة :

ـ وانت فاهم ان ابوك حيورد على جنة ، دا انتو صنف ماينفعش فيكم الا الحرق .

وفى المساء ، كان المساجين يتشعلقون بحديد الباب ، وينادون على ابو سداح بأعلى صوت :

ـ يا أبو سداح ، انت لسه عايش ! اخص عليك راجل مرة .

ولم يرد ابو سداح ذلك المساء على احد . لدرجة اننى اعتقدت انه نفذ

وعده ، وانه بالفعل فعلها ومات ! .

ولكن عندما جاء حارس الصباح ، كان ابو سداح هو اول سجين يهرع الى دورة المياه . وعندما سأله بعض السجناء العابثين عن السر فى تأجيل المشروع ، أجابهم فى وقار :

ـ وانتو فاهمين اننا أموت نفسى بلاش ، انا لازم موتى يقلب الدنيا دى كلها .

واكتشفت ان ابو سداح على مدى السنين التى قضاها فى السجن ، كان يعلن عن تنفيذ مشروعه بالانتحار ، مرة كل عدة اشهر ، وكانت هذه وسيلة لجمع اكبر كمية من السجاير من السجناء الجدد . وعندما كان ينشغل ابو سداح بأمور اخرى ، وينسى مشروع الانتحار ، كان السجناء يذكرونه بأن الموعد قد فات ، واحيانا كان يرد عليهم مازحا :

ـ وانتو يعنى شايفين المساجين ماشاء الله قوى ، دول كلهم شحاتين ! .

ولقد اتيح لى ان أرى أبوسداح لاخر مرة فى حياتى قبل ان اغادر السجن بشهر واحد . فقد وصل الى السجن ذات صباح ضابط كبير ، ومعه قوة من العساكر وكشف بأسماء السجناء المطلوب ترحيلهم الى سجون اخرى بعيدة ، وكان اسم ابو سداح ضمن الكشف الذى يضم اسماء المطلوب ترحيلهم الى بعيد . ولم يصدق ابو سداح فى البداية ظنا ان فى الامر خطأ ما .

وعندما تأكد من ان الامر حقيقة ، هاج كالمجنون ، وخلع ملابسه والقى بنفسه فى المرحاض ، وهدد كل من يقترب منه بالقتل ، وعبثا حاول المأمور ان يقنعه ، وعبثا فعل الضابط الكبير الاخر . حتى اصدقاؤه من الحراس فشلوا فى اقناعه بتنفيذ الامر . وعندما حاولت انا الاخر صرخ فى وجهى :

ـ أروح فين يافندى ، بقى كمان . . رضينا بالهم ، والهم مايرضاش . . أروح فين انا ، دول باعتينا سجن مقطوع ، واللى فيه كلهم فلاحين .

وعندما قلت له :

ـ ماهو اللى هنا سجن ، واللى هناك سجن برضه .

أجاب صارخا :

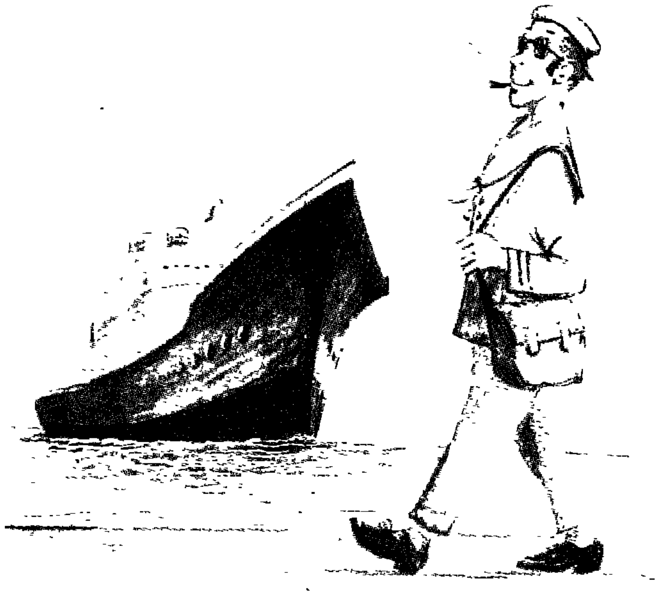
ـ يافندى انت تعرف ايه فى السجون ؟ انا بقالى اربعين سنة فى السجن واعرف الفرق ايه ؟؟ دا احنا قاعدين فى قصر هنا . عاوز حاجة تبعت تجيبها . الوارد هنا اكثر م الرايح . دا هناك كل فين وفين لما تلاقى

مسجون جديد . طب انا قتيل النهارده . ومش منقول من هنا .

ظن ابو سداح انه لصلته الشديدة بالادارة ولاخلاصه العميق لمصلحة السجون . فان الامر سيمر فى هدوء ، وقد يصدر قرار فى اخر لحظة يعفيه من مشقة الانتقال الى سجن بعيد .

ولكن لان شغل الحكومة يجب ان ينحز ، ولأن اوامر الحكومة ينبغى ان تنفذ . فقد صدرت الاوامر الى الحراس بالقبض على ابو سداح ومهما كان الثمن .

وهكذا صرخ العساكر المعلقين على الجدران . . حرس سلاح . . ودق جرس السجن دقات رتيبة سريعة متلاحقة ، ودوت الصفافير تدعو فرقة المطاردة لدخول السجن . ولم اسمع من خلف جدران الزنزانة المغلقة الا اصوات الشريط الذى يجرى تمثيله فى الفناء . صرخات ابو سداح وفى البداية كانت عالية ومجلجلة . ثم نفس الصرخات وقد تلاشت وخفقت ثم هدأت تماما . وصوت الكرابيج تمزق الجو ومع الجو تمزق جلد ابو سداح ، ثم شىء ما ، ربما جسم انسان يجر على ارضية الفناء . ثم اقدام تركض ، وايدى ترتفع بالتحية ، واصوات مبهمة تلقى اوامر ، واقدام تخبط الارض فى انتظار اوامر . . ثم سرعان ماهدأ كل شىء ، واطبق الظلام والصمت على الفناء وعلى السجن ، وعلى السجناء . . اخيرا مضى ابو سداح .



الفصل الثانى

اليانكى

اليانكى هذا اسمه ، وهو ليس اسمه الذى ولد به ، ولكنه اكتسبه من مهنته . فهو فى الاصل بحار من بور سعيد كان يعمل على باخرة بضاعة أمريكية ترفع علم بنما تتسكع بين موانىء الشرق الاقصى ، وتقترب مرة كل عام من شواطىء الشرق الأوسط ، فى خلال رحلتها السنوية الى اوربا .

وعندما كانت الباخرة ترسو فى ميناء بورسعيد ، كان يغادرها ويبقى فى المدينة ينتظر عودتها ليعود الى الشرق الاقصى من جديد ! ولأن الباخرة كانت أمريكية ، ولأن حسين اسماعيل ـ وهذا اسمه فى شهادة الميلاد ـ كان قد تعلم من طول ماعمل فى البحار لغة الانجليز ، وبفضل العمل مع البحارة الامريكان ، كان ينطق لغة شكسبير بلكنة امريكية ، فيبدو وكأنه راعى بقر مفلس فى فيلم من أفلام هوليوود . لذلك أطلق عليه الناس فى بورسعيد لقب اليانكى ، وصار اللقب اسمه بعد ذلك ، ونسى الناس اسمه القديم ، حتى هو نفسه لم يعد يذكره ، وربما كان هو نفسه أسعد الجميع بالاسم الجديد .

وذات يوم جاءت باخرة اليانكى الى بورسعيد . وارتدى اليانكى فى ذلك

الصباح اجمل حلة بحرية لديه ، وخرج ولا ماك ارثر خلال حرب كوريا ، يده فى جيب البنطلون ، والسيجارة الامريكانى تتدلى من جانب فمه ، ونظارة الشمس البيرسول تغطى عينيه ، وتتدلى من كتفه حقيبة كبيرة من قماش فاخر ، ومعه زميل يابانى يعمل بحارا على نفس الباخرة ، آثر أن يقضى أجازته هو الاخر فى بورسعيد ضيفا على اليانكى !

وكان نهار أغبر ! استوقفهما البوليس عند البوابة ، وفتشهما وعثر معهما على كميات ضخمة من الحشيش ، وبعد أيام قلائل كانا يقفان معا أمام القاضى ليصدر عليهما حكما بالسجن المؤبد ، وصرخ اليانكى من هول الكارثة ، أما اليابانى فقد بدأ هادئا ، ربما لانه لم يفهم منطوق الحكم ، وربما لانه يابانى من سلالة قوم يحتضنون الموت وعلى افواههم ابتسامة فرح . وفى قلوبهم ابتهاج عظيم !

المهم ، أن اليانكى عاد ومعه اليابانى الى السجن . ولكن اليانكى لم يكف لحظة عن الصراخ والبكاء واللطم كالمرأة الثكلى على الخدين ! ولاول مرة سأل اليابانى زميله اليانكى عن الحكم ، فأخبره أن الحكم بالمؤبد ، معناه السجن مدى الحياة ، فاذا كان السجين حسن السير والسلوك ، منحوه الحرية بعد عشرين عاما ، والا تركوه خلف الاسوار ليموت ميتة الكلب الاجرب . وسأل اليابانى زميله اليانكى فى هدوء . وماذا تنوى أن تفعل . ورد اليانكى فى هياج شديد ، سأشنق نفسى واموت .

وتمتم اليابانى : غاية العقل ، فليس من الحكمة أن يقضى الانسان حياته كلها فى زنزانة يأنف أن يسكنها خنزير ! ولم يضع اليابانى وقتا ، تناول بنطلونا من بنطلونات اليانكى وقص منه حبلا علقه فى سقف الزنزانة وجاء بمقعد جعله تحت الحبل ، وراح يدرب اليانكى على الطريقة المثلى لكى يشنق الانسان نفسه بأسرع الطرق واحسنها . ثم احتضن اليابانى اليانكى بقوة وودعه بحرارة ، وتواعدا على اللقاء بعد ساعات فى ملكوت السماء . ومضت لحظات الوداع بطيئة . اليابانى هادىء كما هو ، ولا يبدو عليه اثر الانفعال . فلا هو حزين . ولاهو آسف ! واليانكى دائم العويل والصياح ، حتى احمرت عيناه من كثرة البكاء ، واحتقن وجهه من شدة الانفعال .

ومر الليل كما مر غيره على سجن بورسعيد . وعندما جاء حارس الصباح يفتح زنزانات المساجين . تسمرت قدماه عند باب زنزانته فى الدور الارضى ، وراح ينفخ فى صفارته معلنا حالة طوارىء من النوع الجسيم ، وعندما جاء المأمور والضباط وهيئة التحقيق ، كانت الزنزانة رقم « ٩ » حيث يقيم البحار اليابانى تغرق فى صمت كئيب ، واليابانى يلف حول نفسه فى الحبل المعلق فى سقف الزنزانة وقد أصبح جثة باردة ، فارقتها الحياة منه وقت طويل . وعلى

ارضيه الزنزانة الباردة . ورقة صغيرة تركها اليابانى . . لمن يهمه الأمر . . يعلن فيها انه انتحر لانه لايستطيع أن يتحمل مثل هذه الحياة !

واسرع المأمور ورجاله الى الزنزانة رقم « ١٠ » حيث يقيم اليانكى ، وفوجىء المأمور بأن حبل المشنقة يتأرجح خاليا من جثة اليانكى وكان اليانكى نفسه يغط فى نوم عميق ويحلم احلاما لذيذة ، وشخيره يقلق سكان كوكب المريخ ! .

وعندما استيقظ من نومه ، واكتشف أن اليابانى قد مات ، أصابه الذهول فهو لم يكن يصدق أن انسانا مايقدم على الموت حتى ولو اضطرته الحياة الى قضاء العمر كله فى حظيرة للخنازير ! ولم تمض أيام حتى تم ترحيل اليانكى الى الليمان ، ونسى تماما أمر البحار اليابانى ، وانغمس فى حياته الجديدة راضيا بكل شىء . حتى خلال العمل الشاق فى ليمان طره ، كان يوزع النكات هنا وهناك ، وأحيانا كان يحكى للمساجين عن مغامراته العاطفية ، فى هونج كونج ، وماكاو ، وجزر بحر الصين ! .

وعندما التقيت به فى سجن القناطر كان قد مضى عليه نزيل السجن ستة عشر عاما ، وكان قد فقد احدى عينيه نتيجة شجار مع أحد الحراس . ولجأ الى القضاء مطالبا بتعويض عن فقد عينه ، وحدد ١٠٠ ألف جنيه قيمة التعويض ، وكمكافأة عن فقد عينه . . عهدوا اليه بعمل بسيط فى السجن . رعاية كلبة المأمور والعناية بها والترويح عنها خلال ساعات العمل الرسمية فى السجن واعتباره العمل الوحيد الذى يقوم به اليانكى . وهو يكفى لتأديب اليانكى وتهذيبه ، ولكى يعود الى الطريق المستقيم !

ومن خلال كلبة المأمور اصبح لليانكى نفوذ فى السجن ، بل اصبح نفوذه يفوق نفوذ بعض الضباط والحراس ، بل أصبح الحراس يترددون عليه ، لانه كثيرا مايختلى بالمأمور ، يحدثه فى شأن من شئون الكلبة ، وكثيرا ما كان يخرج من حديث الكلبة الى حديث السجن ، وما فيه من مآخذ ومخاز وجرائم ومجون ! وكان الحراس الذين يرتبكون من الجرائم مايستحق اضعاف العقاب الذى حل بالمساجين ، يقسمون للجميع ، أن كل أخبار السجن تصل الى المأمور عن طريق اليانكى ، وأن اليانكى هو عين المأمور واذنه على كل مايقع ويدور داخل الزنازين . ولم يكن اليانكى يخفى حقيقة دوره ، ولم يكن يهتم بنقل مايشيعه الحراس والمساجين بل احيانا كثيرة كان يحاول فى حديث عابر أن يؤكد الاشاعة ويثبتها عند الاخرين .

واكتشفت بعد فترة ، أن الكلبة والاشاعة ، هما مصدر رزقه ، فباسم الكلبة كان يحصل على أجود اللحوم من المطبخ . وباسمها كان يستولى على أجود أرغفة الخبز من الفرن . وبسبب الاشاعة ، كان يحصل على مايريد من كميات الكيروسين والبقول ، والشاى ، وكان يحصل من وراء تجارته المحدودة على

مايجعله يعيش بكرامة فى غابة سجنه الطويل .

وأحيانا كثيرة كان يدعونى اليانكى للاشتراك فى مباراة تنس الطاولة ، مع عدد آخر من أثرياء المساجين ، وكنا نلعب على رهان ، ويتساوى الخاسر والرابح فى النهاية . لان اليانكى كان يتصرف فى قيمة الرهان قبل أن تبدأ المباراة . ولم تكن تزيد قيمة الرهان عن خمسين سيجارة ولكنها كانت كافية لتجعل اليانكى اسعد من تاجر ربح فى البورصة عدة الوف فى ساعات !

ولكنه ذات يوم أخطأ فى تحديد نوعية مسجون جديد وافد على السجن . وهو شاب وسيم يبدو عليه انه من سلالة مماليك حكموا مصر فى العصور الوسيطة . أحمر الشعر ازرق العينين . أصفر الشارب ، جسمه الممشوق وعضلاته المتفخة تشير الى مدى الرفاهية التى تمتع بها فى طفولته ، وتحدد نوع الطبقة التى تربى فى احضانها منذ مولده وحتى لحظة دخوله الى الليمان ، وتوسم اليانكى فيه زبونا من شأنه أن يزيد من دخل اليانكى اذا انضم الى مباريات تنس الطاولة ، وقبل الشاب عرض اليانكى شاكرا ، وانضم الى الفريق على الفور ! واكتشف الجميع من أول ضربة للشباب انه بطل محترف ، ثم اكتشفنا فى نهاية المباراة التى ربحها بسهولة ، انه بطل مصر فى اللعبة . وبطل العرب ، وانه ثالث دورة طوكيو ، والاول والثانى من بلاد اليابان . ولقد كانت فرحة الشاب لاتوصف عندما عرض عليه اليانكى أن ينضم الى فريق تنس الطاولة ليلعب على رهان . فهو أولا يضمن الجميع فى جيبه . وهو ثانيا فى حاجة الى علب الدخان . ولذلك ، وبعد أن انتهت المباراة اتجه الى اليانكى عقب المباراة وطلب منه علب الدخان . وابتسم اليانكى كعادته مع كل زبون جديد لم يفهم بعد سر اللعبة ، ولكن الولد الوسيم كان جادا اكثر من اللازم ، وكان مصرا بشدة على أن يحصل على علب الدخان التى ربحها فى المباراة . وأشتد النقاش بينهما ، وارتفع صوت اليانكى ، يسب دين السجن والسجناء الانذال .

وامتدت قبضة الولد الى وجه اليانكى ، ليطرحه أرضا فاقد الوعى ، ولتنطلق الصفافير تعلن حالة الطوارىء ، وكانت ضربة قاتلة لم تحطم أسنان اليانكى فقط ، ولكنها حطمت مكانته التى اكتسبها فى السجن ، وقضت عليه تماما . وجعلت منه ملطشة للحراس والسجناء ، وحتى كلبة المأمور أصبحت اذا رأته ، بحت فى وجهه ، وتكاد أن تبصق عليه ! .

ولكن . . كيف ؟ ولماذا حدث التحول الخطير فى حياة اليانكى ؟ وكيف تحول الزمان ؟ والحراس ، والسجناء والكلبة ، عن اليانكى ، وقلبوا له جميعا ظهر المجن ؟

لحظة نشبت الخناقة بين اليانكى والولد الوسيم المفتول العضل ، كان اليانكى هو ملك السجن غير المتوج . وكان من خلال كلبة المأمور قد استطاع أن يسيطر

على الادارة وعلى المساجين والحراس ، ولكن ضربة واحدة من قبضة الشاب القوى ، اطاحت باليانكى ارضا ، وأطاحت بنفوذه فى نفس الوقت . والسبب أن اليانكى حاول فى بداية المعركة أن يثبت وجوده كمقاتل ، ولكن الولد القوى قطع عليه الطريق تماما . وراح يكيل له الضربات تباعا ، وسقط اليانكى على الأرض اكثر من مرة ، ثم سقط اخيرا وعجز عن الوقوف ، ثم صرخ من شدة الضرب ، وكان صراخه عاليا ، جذب أغلب المساجين الى صالة اللعب ! ولما تأكد اليانكى انه خسر المعركة ، قرر أن ينتقم بطريقته الخاصة ، فضرب كلبة المأمور ضربة قوية كسرت عظام ساقها الامامية وضلعا من ضلوعها .

وصرخت الكلبة واختلط صراخها بصراخ اليانكى . وجاء المأمور على صراخ الكلبة ، فقد كانت عزيزة على قلبه ، وأحيانا كان يعفو عن مسجون مخطىء اذا توسل اليه من أجل خاطر الكلبة ! وازداد غضبه عندما رأى الكلبة وهى تعرج وقد التصقت بالحائط وراحت تصرخ صراخا حادا بل أن المأمور الذى كان شديد الاعتداد بنفسه ، شديد الغرور ، أسرع نحو الحراس فخطف العصا من يد أحدهم ، وانهال ضربا على المساجين بوحشية وبجنون . بل انه وهو فى حومة غضبه ، ضرب الحراس أيضا ، وعندما سأل اليانكى عن حقيقة الامر ، أشار اليانكى الى الولد المفتول العضل ، وقال للمأمور :

ـ انهال بالضرب على الكلبة ، فلما تدخلت بينه وبين الكلبة ، انهال على بالضرب . .

ولم يصبر المأمور حتى يسمع أكثر ، وانهال بعصاه الشوم على رأس السجين الجديد فسقط الولد مغمى عليه . وعبثا حاول حراس السجن افاقة السجين دون جدوى فاستعانوا بالطبيب الذى قرر أن الولد مصاب بارتجاج فى المخ ، وأبدى الطبيب مخاوفه من أن تكون الاصابة جسيمة ، وهمس فى اذن المأمور أن نقل الولد الى أحد المستشفيات امر ضرورى ، وأثبت رأيه هذا فى دفتر السجن ، وحتى يفلت من المسئولية اذا حدث ومات السجين الشاب ! ولسوء حظ المأمور واليانكى معا ، أن الولد كان ابن عائلة لها نفوذ ، وهو الذى اختار السجن بنفسه ، فقد استدعى للتجنيد بعد النكسة وذهب على أمل أن يقضى عاما ثم يترك الجيش ويعود الى حياته المدنية من جديد ، إلا أنه بعد قضاء أربعة أعوام فى الجندية اكتشف أنه سيظل تحت السلاح حتى يتم ازالة أثار العدوان ، ولما كان موعد الازالة لايعلمه الا الله ، فقد قرر الشاب أن يهرب من الجيش ، وبعد أشهر سلم نفسه مع علمه بالنتيجة سلفا . المحاكمة والحكم عليه بالسجن لمدة عام . يخرج بعدها الى الحياة المدنية ، وهو الأمر الذى تحقق بالفعل !

المهم أن الولد نقل الى المستشفى ، وتبين أن أصابته جسيمة سببت له شللا مؤقتا ، مما جعل السجن مقصد عشرات من المفتشين والمحققين ، وسقط المأمور

فى دوامة لاتنتهى ، وتحقيقات لا أول لها ولا أخر ، وكشفت التحقيقات عن الحقيقة ، كلبة المأمور ، ونفوذ اليانكى الذى وصل اليه من خلالها ، وكميات اللحم التى كان يستولى عليها من المطبخ ، وأرغفة الخبز التى كان يلهفها من المخبز ، وارهابه للحراس والمساجين على السواء .

المهم أن المأمور لم تهتز فيه شعرة لكل هذا الذى سمعه فقد كان على علم بكل التفاصيل ومن قبل أن يبدأ التحقيق . ولكن الذى جعل المأمور يفقد صوابه تماما . هو ماشهد به الشهود ، أن اليانكى هو الذى كسر ساق الكلبة وليس الولد المشلول !

وهكذا دخلت فرقة من حراس السجن ذات صباح زنزانة اليانكى لتجردها من كل شيء ، ولتطبق اللائحة عليها . فلم تترك فى الزنزانة إلا بطانية واحدة ، فيها من الخروق أكثر مما فيها من القماش . واحتج اليانكى بأنه مسجون درجة اولى ، وهى الدرجة التى اكتسبها من طول ما عاش خلف الاسوار ولكن احتجاجاته كلها ذهبت ادراج الرياح .

وتطبيقا لنص اللائحة التى وضعت فى عصر الخديو اسماعيل ، أمروا بتخزين اليانكى ، وهو تعبير يطلق على المساجين الذين لا عمل لهم ، ومن ثم ينبغى أن يلزموا الزنزانة وأن تغلق عليهم فيما عدا ساعة واحدة خلال النهار ،

وأدرك اليانكى أنه سقط فى بئر لاقرار لها ، وأن السجن الحقيقى قد بدأ الآن ، فلم يكن اليانكى كغيره من السجناء . فهو بلا أهل ولا أصدقاء ، وهو يأكل عيشه بعرق جبينه ، أو بعرق ذكائه ، أو بعرق انتهازيته ، أو بعرق شطارته ، أو بعرق ضميره ، المهم أن جزءا فيه لابد أن يعرق لكى يأكل عيشه داخل الاسوار .

انه لايذكر أبدا أنه استدعى للزيارة كغيره من النزلاء فهو حتى قبل السجن كان قد انقطع عن زيارة حى المناخ حيث يقطن اخوه ؟ وكان أحيانا يلتقى فى بورسعيد بأحد أقاربه صدفة ، فيصافحه كما يصافح عابر سبيل ، ثم يتركه ويمضى الى حال سبيله . وكان يباهى الاخرين ، بان أباه هو البحر وأهله هم البحارة . وزوجاته هن كل النساء اللواتى يتسكعن على أرصفة أى ميناء !

ولجأ اليانكى الخبير بأساليب السجناء الى طريق الشكاوى . فانهالت العرائض على مصلحة السجون تتهم المأمور والادارة بكل رذيلة ، وبعضها كان حقائق ، والبعض الاخر كان من نسج الخيال . ولكن الادارة المدربة ذات الخبرة العريقة فى عالم السجون ، كانت تعرف كيف تسدد هذه الشكاوى . بالشكل القانونى . وبالطريقة التى تجعل الادارة فوق مستوى الشبهات ! .

وضاقت الاحوال باليانكى تماما ، فأعلن الاضراب عن الطعام . وفى العادة يترك المسجون المضرب عن الطعام ثلاثة ايام دون اهتمام ، فاذا واصل اضرابه

بعد ذلك ، استدعت ادارة السجن وكيل النيابة لتحقق فى أسباب الاضراب . ولكن الادارة فى حالة يانكى تركته اسبوعا كاملا بلا ادنى اهتمام . والسبب ان المامور كان شديد الوثوق ان اليانكى ليس مضربا بالفعل . وانه يأكل حتى يشبع او يشرب الشاى حتى يرتوى ! وان دخله من السجاير زاد حتى خلال فترة الاضراب .

وفى تلك الايام التى أعلن فيها الاضراب ، كنت دائم التردد عليه فى المستشفى حيث نقلوه . وكان اليانكى طوال الفترة التى امضيها فى زيارته بالمستشفى ، يحكى لى عن ايامه فى بلاد الشرق الاقصى . كيف انه تاجر فى الافيون فى ماكو ، وكيف عشق فتاة فى عمر الورد فى هونج كونج ، وكيف اضطرته الظروف الى قتل انسان فى سنغافورة !

- تصدق بالله ، كنت اشهر بحار فى بحر الصين ، وانت تسافر هناك كتير وتقدر تعرف ، اسأل عن اليانكى فى ايها حته الناس هناك تقولك .

وكان يانكى خلال سرده لاحداث قصصه الوهمية ، يقوم من فوق سريره ، ويتمشى خطوات حتى يصل الى سرير مسحون آخر مريض ، فيلتقط من امامه ثلاث حبات من ثمار التين ، يأكلها على عجل قبل ان يعود الى سريره ، وكان الرجل العجوز الذى قضى نصف حياته فى السجن ، يضحك ضحكة متقطعة ، وهو يعلق على فعلة يانكى .

- ما تأخذ كام واحدة كمان عشان الاضراب بتاعك ينفع . وعندئذ كان يانكى يصيح معلقا :

- وهمه دول هيعملوا أيه ؟ انا باكلهم بس عشان أعرف أشرب سيجارة .

وكان يجلس عل سريره ويشعل سيجارة ، ثم يبدأ يروى قصة عن بنت صينية عشقها ذات يوم بعيد :

- كان جسمها ملىء ياستاذ وكانت هربانة من الجماعة الشيوعية . أصلها كانت بنت واحد ملك . تصدق باللى خلقك ، كانت تفك العشرة جنيه ، مايقعدوش معاها يومين . كانت آخر نراهة واخر جو . وكانت تشترى لى الحشيش على حسابها ، وتقولى اشرب يايانكى . طب واللى خلقك المأمور بتاعنا ده كان مايقدر يكلمها ، ولاهيه ترضى تبص لواحد زيه ، غير شى زمن ! .

واحيانا كثيرة ، كان يذكر الولد اليابانى الذى قبضوا عليه فى بورسعيد وحاكموه مع اليانكى .

- كان ولد طيب وابن حلال بس كان غشيم ، ومش بتاع دنيا . شنق نفسه العبيط !

وذات مرة سألته :

- مش الموت احسن من السجن يا يانكى :

ورد اليانكى فى غاية الغضب .
ـ مين قالك الكلام الفارغ ده ما احنا عايشين اخر حلاوة اهه . فاضل اربع سنين ونطلع ، ونركب البحرثانى ، ونسافر ، ونبقى آخر جو !

لقد كان الرجل رغم كل شئ يحلم ، لقد فقد عينه وتحطمت حياته تماما ولكنه لم يفقد القدرة على الاحلام .

ـ لما أخرج باذن الله ، هاعمل تهريبة واحدة ، واكسب لى كام الف جنيه ، واترك البحر واشترى حتة ارض واقعد .

واحيانا كان يخرج من احلامه الى الواقع البائس الذى يحياه . .

ـ ودين النبى لو المأور مامشى معايا كويس لاكون عاملها فيه وقاتله . هوه العمر فاضل فيه أد أيه ؟؟ ان شاء الله يارب يشنقونا .

وذات مرة سألته :

ـ وفيها ايه لو اصطلحت مع المأمور .

ورد فى هدوء .

ـ مفيش مانع . بس يسلمنى الكلبة . .

وذات مساء ، شعر السجناء بحركة غير عادية فى السجن .

دخل المأمور والطبيب الى الفناء قبل منتصف الليل بقليل . وصاح مسجون من خلال قضبان النافذة :

ـ فيه حتة ربنا تاب عليها من عذاب السجن ، وبتودع الليلادى فى المستشفى .

وفى الصباح عرفنا ان اليانكى داهمته نوبة قلبية ، وانه يجتاز رحلة خطر شديدة بين الحياة والموت ! ورغم انه فى مثل هذه الحالات تمنع زيارة المريض ، الا ان مستشفى السجن تتبع نفس اسلوب السجن الخاص ، وضاق المستشفى ذلك اليوم بالمئات الذين توافدوا عليها ليشاهدوا اليانكى وهو يصارع الموت . ولم يصمد اليانكى طويلا . فمات فى المساء التالى . . وظل راقدا فى مشرحة السجن ثلاثة أيام فى انتظار ان يأتى أحد لاستلام جثته . ثم كفنوه وسلموه الى حانوتى يتعامل مع مصلحة السجون .

ورافقه عشرة من المساجين القدامى الى البوابة الخارجية . واصطف حرس شرف من عساكر السجن عند الباب ، قاموا باداء التحية الاخيرة لليانكى .

البحار المغامر القديم الذى طاف حول الدنيا ، قبل ان تغرق سفينته فى قاع السجن .



الفصل الثالث

سيد الحليوة

لحظة وضعت قدمى فى السجن ، كان قد مضى عليه تسعة عشر شهرا . وكان قد مضى عليه منذ ولادته تسعة عشر عاما لاتزيد !

وعندما رأيته فى فناء السجن اول مرة ، كان يبدو كتلميذ فى المدرسة الثانوية ، وكان يرتدى بدلة حسنة الصنع ، جيدة القماش ، ويرسل شعر رأسه على موضة هذه الايام . ولعنت الحظ الذى قذف بمثل هذا الصبى الوسيم الى حيث القيود والقضبان ! وتصورت انه ربما اخطأ فى المدرسة ، فضرب زميلا له او اعتدى على مدرس من المدرسين ، ربما تورط فى سرقة صغيرة ، ربما كان يلهو فتجاوز بشقاوته الحدود المرسومة !

ولكنى كدت اجن عندما علمت ان الولد الصغير قاتل ، وانه قتل شقيا شهيرا فى منطقة تمتد من ابو صير الى سقارة الى الحوامدية ، وهى المنطقة التى اطلق عليها بعض رجال الامن اسم مثلث الرعب . .

وأصل الحكاية ان الولد الوسيم الصغير ، كان فى الرابعة عشرة من عمره ، عندما خرج أبوه ذات مساء من قريته سقارة قاصدا الى قرية ابو صير ، فقد كانت

هذه عادته كل ليلة جمعة حيث يقضى شطرا من الليل عند بعض الاصدقاء ، يشربون الشاى ، ويدخنون الجوزة ، وربما يلعبون الورق . ثم يعود عند منتصف الليل وحده بين الحقول الى سقارة . واحيانا فى ليالى الصيف الندية ، والجو حلو ، ونسمة هواء طرية تهب من ناحية الصحراء المجاورة ، كان الولد السعيد يرفع عقيرته بالغناء . فقد كان يتمتع بصوت جميل ، أحيانا كان يستخدمه فى الغناء فى أفراح الفلاحين ، ولياليهم الملاح .

والرجل نفسه كان وسيما كسيدنا يوسف ، ملامحه ليست شبيهة بملامح الفلاحين ، فالعيون زرق والشعر أصفر . والبشرة بيضاء . . ولا أحد فى القرية كلها يدرى من أين جاء فالبعض يؤكد انه من بلاد فى ريف المنصورة. وانه من نسل عساكرر فرنسا الذين كسرهم عسكر شجرة الدر وأسروهم مع ملكهم لويس التاسع ، ثم وزعوهم على بيوت الفلاحين كعبيد ، ولكنهم اعتنقوا الاسلام بعد حين وتزوجوا من نساء الفلاحين واحيوا منهم نسلا يضرب به المثل فى الوسامة والجمال ! والبعض يؤكد انه ابن سائحة خوجاية جاءت إلى مصر فعشقت الاعرابى الترجمان ، وحملت منه سفاحا وكان هذا الرجل هو ثمرة هذه العلاقة المحرمة !

ولكن عجائز القرية وشيوخها يؤكدون انه ابن امرأة كانت تعمل غازية فى الافراح ! وانها كانت غجرية تعيش خارج القرية ، وان الانجليز عندما اجتاحوا القرية خلال ثورة ١٩١٩ . لم يجدوا امرأة تطارحهم الغرام الا هذه الغجرية . وان ثمرة هذا اللقاء هو هذا الشخص نفسه ، الذى كان يتمتع بوجه جميل وصوت اجمل من وجهه

المهم . . الحكايات عن أصله وفصله كثيرة ، والاشاعات اكثر . ولكن المؤكد انه كان رجلا طيب القلب ، وكان ثنايا على نحو ما ، ولم يكن بينه وبين احد عداوة . ولذلك كان يسرح وحده بين الحقول دون خوف ، الى ان كانت تلك الليلة المشئومة . حين عاد من سهرته المألوفة . وعند نقطة يضيق فيها الوادى وتضيق عليها الصحراء ، إنفرجت اعواد الذرة عن ماسورة بندقية ، انطلقت منها رصاصة اخترقت قلب الرجل الطيب ، فتكوم غلى الارض دون ان يتفوه بكلمة !

وما أشد الغموض الذى يكتنف مصرع رجل من هذا النوع . فلا خصومات ولاحزازات وليس لديه مايجعله على طمع او حسد من أى نوع ! ولكن جموع الفلاحين لديهم حساسية خاصة قادرة على اكتشاف الحقيقة . فلم يكد يمر اسبوع ، حتى تهامس الناس فى قرية ابو صير وفى القرى المجاورة بآن القاتل.هو عليوه . وان السبب وراء الجريمة هو زوجة الرجل القتيل . فالزوجة جميلة ، عودها ملفوف ، وعيناها وسيعتان ، وشعرها ينسدل على ظهرها ، وضحكتها

عالية ، ورنينها يدغدغ الاعصاب ، وعندما عرض نفسه عليها ، تمنعت وتدللت وظن عليوه انه موقف تجيده النساء ولكنهن لايلبثن ان يسقطن . .

ولكن عليوه فوجيء بأن المرأة مصرة ومتشبثة ، وعندئذ قرر ازاحة زوجها عن الطريق : كي يخلو له الجو ، ويفوز بالزوجة عنوة او سلاما ، فلا شيء يهم وليس هناك اى فرق ! والناس الطيبون فى قرى الجيزة قالوا ان عليوة هو القاتل فعلا ، ولكن ليس وراء الجريمة أسرار . فقد كان عليوه ينتظر شخصا مالقتله ، ولكن سوء الحظ ساق القتيل فى تلك اللحظة بالذات . فى هذا الطريق بالذات ، فقتله عليوه عن طريق الخطأ ليس الا ! .

المهم ان الشاب الوسيم مات قتيلا ، والمهم ايضا ان الاصابع كلها امتدت تشير الى عليوة بالاتهام ، وتأكد الاتهام عندما ارسل عليوه شخصا من طرفه ، سلم الاسرة المنكوبة ثلاثمائة جنيه ، كتعويض عما أصاب الاسرة من فقد الولد ، وبدا للجميع ان كل شيء قد انتهى . . القتيل رحل ، والقاتل دفع الدية ، والأم تحاول ان تدبر امورها فى هدوء ، ولكن سيد الصغير نجل القتيل لم يهدأ له بال . اصابه شرود غريب ، وقال الفلاحون ان بالولد مسا من عفريت ، واعتزل الناس ، حتى رفاق الحارة عزف عن صحبتهم .

وبدت عليه ملامح رجولة مبكرة ، فاذا مر بجماعة قرأ عليهم السلام . واذا مات احد فى القرية ذهب ليؤدى واجب العزاء . وكان الولد وسيما كأبيه . ولوعا بالغناء كأبيه ! ولكن احدا لم ينتبه الى ان الولد الوسيم الفنان يغلى فى اعماقه . وانه قرر ان يأخذ بثأر أبيه .

وذات صباح والشمس تشرق فى العلالى ، وصهد شهر حزيران يشوى كل شيء حتى الشجر والحجر ! كان عليوه المفتون بنفسه ، الواثق ببأسه ، يتمشى افرنجى على جسر ترعة العزيزية ، وقد تلفح بشاله ، ووضع بندقيته على كتفه ، وقد امتد طرفا شاربيه فى الفضاء ، عندئذ كان الولد السيد الحليوة يقف على جانب الطريق مستندا على شجرة ، وعندما اقترب عليوه من سيد هتف به فى طيبة :

ـ كيف الحال ياسيد ، واقف وحدك ليه ع الجسر ، امال فين امك ؟ ولم يرد سيد ولم يتكلم ، أطلق ستة عيارات من مسدس كان يخفيه فى ملابسه ، أصابت قلب عليوة فسقط يتخبط فى بركة من دمه ! ولم يهرب سيد ، ولم يتحرك من مكانه ، بل وقف فوق الجثة ، ومسدسه فى يده ، وقدمه تغوص فى بركة دم عليوه . وامام الشرطة اعترف سيد بقتل عليوه . واتهمه بقتل والده ، وأضاف انه بعد أن مات والده بأسبوع واحد . حضر عليوه الى المنزل للعزاء ، ورغم جو الحزن المخيم على البيت ، فقد حاول عليوه مغازلة الزوجة ـ أم سيد ـ واحتضنها بالفعل أمام سيد ، وهو واقف فى الركن ! ينظر ويتأمل ويرتجف بدنه كله . ولو كان معه

مسدس فى تلك اللحظة ، لاطلقه على عليوه ، لو كان معه سكين حاد لغرزه فى صدر عليوه ، ولكنه لم يكن يحمل معه شيئا . ولذلك اثر السكوت حتى تحين الفرصة !

وحكى سيد ، كيف حصل على المسدس ، وكيف قرر القضاء على عليوه ، وكيف تعقبه ، وكيف عرف خط سيره كل صباح ، وكيف انتظره ذلك الصباح على الجسر وعند الشجرة ، وكيف قتله ، وكيف اغرق حذاءه فى دمه ! .

وصارت قصة سيد وعليوه ، حديث الناس ، وأصبحت بابا ثابتا فى الصحف ، ولاول مرة يلقى قاتل عطف الناس . فهذا الولد الوسيم الصغير ، ثار لدم ابيه ولعرض امه . وسرت العدوى من الناس الى القضاء فحكموا بحبسه لمدة عامين . واستراح سيد الحليوة ، وهو جالس فى السيارة من المحكمة الى السجن ، وكانت هذه هى أول مرة فى حياته يقع بصره فيها على سجن ، واول مرة يختلط فيها بالمساجين ، ودق قلب سيد قلقا وخوفا . ولكن سجينا ابيض اللون طويل القامة ، يزين فمه بأسنان ذهبية ، ضحك لسيد فى طيبة . وربت عليه فى حنان . وقال لسيد :

ـ ماتخافش ، السجن مش وحش زى مانت فاهم . وانا خدامك وتحت أمرك .

وعندما انتزع الحراس سيد وعزلوه باعتباره صغير السن ، وجديدا ايضا فى عالم السجون اشار اليه الرجل الابيض الا يخاف ، فسيدبر له كل شىء فى الغد .

بدأ سيد الحليوة ليلته الاولى فى السجن ، وحشروه حشرا فى زنزانة (الايراد) مع مجموعة المساجين الجدد ، ولكن سيد لم ينم طول الليل ولم يغمض له جفن . فبعد ان اغلق السجان الباب نشبت خلافات حادة بين بعض المساجين ، ودبت خناقة حامية بين ثلاثة منهم ، وارتفعت المطاوى فى الجو ، ولمعت السكاكين فى الظلام . وسقط جرحى يعومون فى بحر من الدماء . وصرخ سيد الحليوة طالبا النجدة ، ولكن لكمة جاءته من الخلف افقدته القدرة على النطق .

وصوت الحارس جاء من الخارج يلعن سنسفيل أبوه ويأمره بالتزام الصمت ، وعندما فتحوا باب الزنزانة فى الصباح ، اكتشف سيد ان كل ماجرى فى الليل ، قد ولى مع الظلام ، واكتشف سيد فى تلك اللحظة قانون السجن الابدى . ففى السجن ، ويل للظالم والمظلوم . والعقاب ينزل بالضارب والمضروب ، والاهانة من نصيب الشاكى قبل ان تكون من نصيبه المشكو فى حقه ! وخاف سيد كما لم يخف من قبل ، بل هو خاف هذه المرة ، ولم يخف قبل ذلك قط !

بل انه عندما تربص لعليوه عند الشجرة واطلق عليه النار وقتله وغمس قدميه فى دمه ، لم يشعر ابدا بالخوف ، ولم ترتعش عضلة واحدة فى قلبه . . وشعر سيد الحليوة انه وحيد وانه ضائع وانه فى حاجة الى حماية . لحظة من هذه اللحظات التى يشعر فيها المرء ان كل شىء قد ضاع وكل شىء قد انهار . . كغريق يجرفه

التيار ويده لاتقبض الا على الماء ، ولاتتشبث الا بالهواء .

فى تلك اللحظة هبط عبده الابيض على سيد ومع عبده حلاوة طحينية وجبن وعلبة سجاير . ولكن سيد الحليوة طلب من عبده الابيض طلبا واحدا لاغير ، ان ينقذه من زنزانة الايراد . ولما شرح له عبده ان المسألة عويصة . وانها تحتاج الى مبالغ كبيرة . ابدى سيد استعداده لدفع أى شىء ، مقابل الانتقال ، وامهله عبده الى الغد ليدبر الامر ، ووعده خيرا ورجاه ان يكتم الخبر !

وكتم سيد الخبر عن الاخرين . وبات ليلته قابعا فى ركن الزنزانة ، وعندما فتح الحارس الباب كان اول الخارجين وعندما التقى عبده الابيض واستفسر منه عما تم بشأن النقل من زنزانة الايراد ، راح عبده يعدد له المتاعب التى تعترض الموضوع ، والمصاعب التى تحول دون تحقيقه . كان سيد يسمع ذلك ووجهه يزداد اصفرارا ، فأمله فى النقل قد تلاشى ، ورغبته فى النجاة من هذا المستنقع الذى سقط فيه قد تبددت .

وهمس فى ضعف شديد . .

- يعنى مفيش فايده ياعم عبده ؟

فأجاب عبده بنبرة صوت لاتنم عن شىء .

- كل عقده ولها حلال ياسيد .

- وامتى الحل ياعم عبده ؟

- بكرة ربنا يسهلها .

وظن سيد ان عبده يعنى كلمة بكره بحرفيتها . . ولكن . . بكرة هذا لم يأت الا بعد اسبوعين . كان سيد قد انشوى على جمر النار . وما أغرب هذا التكوين الغريب الفريد الذى اسمه انسان . يقتل سيد عليوه ! وهو على استعداد ليقتل الف رجل ! ولكنه لايحتمل الاقامة يوما واحدا فى زنزانة الايراد ولكن ، ها هو الفرج اتى على كل حال . وها هو عم عبده يجمع متاع سيد فى كيس من القماش ، وعندما استوى سيد جالسا على الارض فى زنزانة عم عبده ، اكتشف عمق الهوة بين زنزانة عم عبده وزنزانة الايراد . هنا كل شىءمرتب وجميل حتى الجدران معلق عليها صور لممثلات جميلات ، نهودهن بارزة ، وارادفهن متكورة ونظراتهن جريئة .

وذهل سيد عندما رأى فى زنزانة عبده مرتبة جيدة الصنع ، وقلة مياه تجعل الماء أبرد من ليالى الشتاء ، ووجد موقدا بأربع شعلات لانضاج الطعام ، واعداد الشاى ، هل زنزانة عم عبده ، فى نفس السجن الذى يضم زنزانة الايراد ؟ حتى الحراس عند عم عبده اكثر رقة واكثر أدبا . وهم يتكلمون مع السجناء ، ويبتسمون ايضا ، ويضحكون احيانا .

ولاحظ سيد الصغير ان الفروق هنا زالت ، فلا فرق بين السجان والمسجون ، بل احيانا المسجون هو الاقوى ، وهو الاعز ، والسجان هو الضعيف وهو الاذل ، ولاحظ سيد أيضا ، انه فى موعد وجبة الغداء يجتمع المسجونون والسجناء ليس كل السجناء بالطبع ولكن بعضهم ، يجتمعون فى زنزانة عم عبده ، يأكلون ويشربون الشاى ويدخنون السجاير ويروون النكات !

ولاحظ سيد الصغير أيضا ، ان السجان اذا خرج من زنزانة عبده ، خلع الحزام ورسم على وجهه تكشيرة رهيبة ، وضرب بقية السجناء الذين يتلطعون بجوار الجدران .

وارتاح سيد جدا للجو الجديد ، وللمأوى الجديد ، وادرك ان السجن ليس سيئا للغاية كما سمع من قبل ، وكما توهم هو نفسه خلال ايام العذاب التى عاشها فى زنزانة الايراد ، وبدأ سيد يشعر بالاستقرار ، واخذ يعد الايام التى انصرمت ، والايام التى بقيت ، وصار له اصدقاء فى السجن ، شبان صغار فى مثل عمره ، فقد لاحظ سيد ان السجن يكتظ بهذا النوع من الصبية ، ولكنهم ليسوا قتله ، انهم فقط لصوص ومجرمون صغار ، ولكنهم ظرفاء واصحاب نكتة حاضرة ، وتجربتهم فى السجن تجعلهم اكثر جرأة من سيد على مواجهة المشاكل ، والخروج من المأزق . . واللف حول مواد اللائحة التى تمسك بخناق المسجونين .

ومرت شهور وسيد فى السجن ينتظر من يزوره ولكن دون جدوى ، وجن جنون سيد ، فلا يمكن ان تتخلف امه عن زيارته الا لأمر رهيب ، وراحت الظنون تتقاذف سيد الصغير ، هل ماتت ؟ هل مرضت مرضا شديدا أقعدها عن القيام وعن السير وعن المجىء اليه ؟

انها لم تكن تحب فى الحياة اكثر من سيد ، وهى التى أطلقت عليه اسم الحليوه ، فما الذى اخرها عن زيارة سيد ، وهو الذى قتل عليوه حين مد يده ليتحسس جسدها المقدس النبيل !

وفضفض سيد بأحزانه وظنونه لعم عبده الابيض . واستمع عم عبده فى هدوء وابتسم فى هدوء ، وهز رأسه ونطق بالحكمة كلها .

ـ يابنى المسجون رحته وحشة ، ماحدش عاوز يشوفه .

وقال سيد الحليوة :

ـ بس أنا يا عم عبده ، مش مسجون فى حاجة عار من غير مؤاخذة ، وانا

مسجون عشان الشرف . دنا قاتل وواخد بتارى .

وهمهم عبده وهو يحرك الشاى فوق النار :

ـ كله بيتساوى ، المسجون مسجون ، ان شاء الله يكون مسجون فى ايه !

كانت هذه العبارة هى خلاصة حكمة عبده فى الحياة . فهو سجين معتاد التردد على السجون منذ ان كان فى عمر سيد . وهو ليس بقاتل ، وليس بلص ، وليس بغشاش أو نصاب أو دجال أو نشال ، ولايؤذى احدا ، ولايضر احدا ، ولكنه تاجر معروف وله زبائن ، وتجارته من أغلى وأحلى السلع فى التاريخ ، لانها سلع تتحرك وتتكلم وتشكو وتضج وتئن وترغب وتجفل وتحن وتغضب وتهرب ، فبضاعته هى الانسان ، انه قواد شهيرله فى عالم الليل باع طويل وهو مشهور ، أشهر ربما من بعض الوزراء ومن بعض الممثلين ، ولكن جهات الامن لاترحم ، ومع ان رجال الامن انفسهم ليسوا فوق مستوى الشبهات ، فهم اصحاب مزاج ، وسمار ليالى ، ورواد متعة ، وهم احيانا يلجأون لعبده ودائما عبده يلبى لهم طلباتهم . ولكن عندما تقع الفاس فى الرأس ، لا أحد فيهم يعرفه ، ولاأحد منهم يقدم له مساعدة ، بل انهم فى كل الحالات يعاملونه وكأن أعينهم لم تقع عليه من قبل .

ـ وتعرف يابنى ياسيد ، اللى مامعهش قرش بتاعه هوه ، ما يسواش قرش ، خدها حكمة من عمك عبده . ومافيش حد ينفع حد ، لاتقوللى امك ولا أبوك . مفيش غير عينك وعافيتك .

ـ طيب والعمل ياعم عبده ؟

ـ انت عليك فلوس كثير ياسيد ولازم تدبر نفسك . وساد الصمت بينهما فترة ، قطعه سيد بسؤال حائر .

ـ وأدبر نفسى ازاى ياعم عبده ؟

وقال عبده على الفور :

ـ تفتح مخك ياسيد ، فتح مخك وانت تأكل ملبن .

انقلبت احوال سيد الحليوه بين يوم وليلة . هاهو الآن يبدو وسط حثالة المساجين ، كأنه طالب ابن ذوات فى مدرسة داخلية . البدلة مضبوطة وعلى مقاسه واخر قيافة قام بتفصيلها فاروق الشامى مقصدار السجن . وهو ترزى كان له صيت عظيم فى مصر كلها . وكان ترزى البشوات والامراء والاعيان واصحاب الطين . ولكن الشيطان الذى ركب رأسه ،

وحرضه على تهريب المخدرات ، اطاح به من فوق عرشه والقى به فى السجون خمسة عشر عاما وهو الآن يعيش فى سجن القناطر يقضى الايام الاخيرة من العقوبة ، رئيسا لورشة الترزية . ومتخصص فى تفصيل بدل البيه مدير مصلحة السجون والبيه الوكيل والبيه مأمور السجن وحضرات الضباط ، بل ان نشاطه امتد ايضا الى البهوات أصدقاء مدير المصلحة . ووكلاء المصلحة والمأمور .

وهو بالرغم من كونه اعظم ترزى عرفته القاهرة فى فترة من الفترات ، الا ان اجره لم يزد عن خمسة جنيهات للبدلة الواحدة التى يقوم بتفصيلها داخل السجن ، اما البيه مدير المصلحة . فهو لايدفع شيئا . لأن البيه المأمور دائما يقسم بأن يتولى هو الدفع بدلا من البيه المدير ، ولكنه لم يحدث ابدا ان دفع شيئا على الاطلاق !

وهو بالنسبة لسيد الحليوه فقد تقاضى نظير تفصيل البدلة خمسين علبة سجاير وهى بعملة السجن تساوى عشرة جنيهات . دفعها عبده الأبيض راضيا .

وعندما رأها عبده الابيض على جسم سيد الحليوه ، شهق من شدة الاعجاب ، فالولد الوسيم تحول فى البدلة الجيدة الى شيء أشبه بالممثلين . وفى قدم سيد حذاء أبيض ، ومن جيبه يطل منديل حريرى هفهاف ، وعلى رأسه طاقية لها حافة تقيه حرارة الشمس ، واستطاع عبده بنفوذه أن يدرج اسم سيد فى قائمة المرضى الذين يصرف لهم غذاء خاص . وهو غذاء مكون من بيض وحليب وليمون وشاى وخضراوات طازجة . وهو غذاء مخصص للمرضى ، ولكن المرضى لم يحصلوا عليه قط . ومن يريد ان يحصل على هذا الغذاء الطيب عليه ان يدفع مرتبا شهريا للدكتور لويس طبيب السجن . وهو رجل قبيح الخلقة قبيح التكوين .

الذى يراه من بعيد يتصوره امرأة حامل فى شهرها الأخير ، وهو يعيش فى سكن خاص ملحق بالسجن . ومتزوج من سيدة تصغره بعشرين عاما ثرية ووالدها عمدة فى قرى أسيوط بالصعيد .

وهو لم ينجب لانه فاقد القدرة على الانجاب ، ورغم انه طبيب ، ومفروض فيه انه ملاك الرحمة داخل بيت العذاب ، الا ان المساجين الفقراء يخشونه اكثر مما يخشون الحراس . وويل للمسجون المريض اذا لم يدفع للدكتور لويس . سيضربه لويس حتى يغمى عليه . ثم يكتب فى

تقريره انه متمارض ، فتجلده الادارة أو تضعه فى زنزانة التأديب . وكل شيء عند الدكتور لويس بالثمن . الدواء له ثمن . والاجازة من العمل لها ثمن ، والغذاء الطبى له ثمن . والاقامة فى مستشفى السجن لها ثمن .

وهكذا حصل سيد الحليوة على الغذاء الطبى . ولم تمض ايام حتى أفاد الغذاء الجديد ، فتورد وجه سيد الحليوه ، فصار احلى مما كان ، ولكن سيد الحليوه كان يشغل باله سؤال عذبه طويلا : اين ذهبت امه ؟ وأرسل المراسيل ، وبعث بالوفود ، ولكن لا حس ولاخبر ، لقد اصبح دينه ثقيلا لعم عبده الابيض ، ولو جاءت امه تزوره فسيسدد دينه عن آخره . . اذا انه لاول مرة ، يحس ان الدين اكثر قيدا على حرية الانسان ، من قضبان السجن نفسه ! غير أن تفكيره فى الدين ، وضيقه به ، لم يمنعه من مواصلة الحياة على هذا النحو ، بل لقد أصبح من العسير عليه ان يعود مرة اخرى الى زنزانة الايراد ، أو يصعد الدور الرابع ، حيث المتسولون والذين لامورد لهم . وعم عبده الابيض رجل طيب ، وهو يدفع عن طيب خاطر ، ربما لانه صاحب اولاد ، ربما كان احد اولاده يشبه سيد ! وربما لان سيد نفسه صاحب قلب طيب ، ولذلك وفقه الله فى معرفة اولاد الحلال !

ولكن ذات صباح حدث شيء غريب لم يكن يتوقعه سيد . كان يجلس فى زنزانة عم عبده ، عندما جاء سجين آخر ، ولكن يبدو من منظره وهيئته انه من الاثرياء . كان يرتدى بدلة لونها فى لون ملابس السجن ولكن قماشها افخر من قماش بدلة المأمور . ويدخن سجاير امريكانى فاخرة ، واخرج قطعة حشيش من صنف جيد القى بها بين يدى عم عبده . وراح الاثنان يدخنان سجاير الحشيش ، والرجل يختلس النظرات الى سيد الحليوة . وفجأة قال بدون مناسبة .

- انت سيد الحليوه ؟

وقال سيد

- أيوه . .

ورد الرجل فى هدوء

- اسمك مضبوط ، انت حليوه بصحيح .

وخيم الصمت لحظة على الجميع ، قبل أن يستطرد الرجل قائلا :

- أنا سمعت حكايتك ، وأنا مبسوط منك ، واد جدع ، قتلت عليوه ربنا يجحمه فى نار جهنم ، كان راجل شر ، وانا مبسوط منك

ثم دس الرجل يده فى جيبه ، واخرج ورقة من فئة العشرة جنيهات ، وقال لسيد الحليوه :

- خد دى عشانك .

وأبدى سيد رفضا فى البداية ، ولكن عم عبده الابيض حرضه على قبولها

- خد من عمك خضير ماتكسفوش .

وعندما مد سيد يده واخذ الورقة . قال عم عبده الابيض :

- دا عمك خضير راجل سيدنا وتاج رأسنا وعم الناس اللى انت شايفها دى كلها . ولافيش حد هنا يرفض له طلب ، حتى البيه المأمور بينفذ طلباته .

تصدق بالله .

هكذا قال عم عبده وهو يعتدل فى جلسته .

- فيه ناس هنا فى السجن ، تتمنى تقعد ولو خمس دقائق مع المعلم خضير .

وعلق المعلم خضير وهو ينهض . .

- ملعون أبوهم جميعا أولاد كلب . لم نر مساجين مثل هؤلاء من قبل ، حتى السجون باظت مثل كل شىء .

وقال عم عبده الابيض . .

- مساجين زمان كانوا مساجين بحق وحقيق ، ومساجين اليوم زبالة .

ولم يعلق المعلم خضير بشىء . ولكنه عندما أصبح على عتبة باب الزنزانة ، التفت ، وقال لسيد الحليوة :

- ابقى فوت على فى الزنزانة كمان شويه ياسيد . عندى بدلة حلوه تنفعك .

ولم يرد سيد ، ولكن عم عبده هو الذى رد :

- كمان شويه هيكون عندك يامعلم . وبنا يخليك ويطول فى عمرك .

عندما صعد سيد الحليوه على السلم الحديدى الدور الثانى حيث يقيم المعلم خضير فى زنزانة بالدور الثانى ، شعر ان عيون المساجين تلتهمه ، واحسن بأن همس المساجين يدور كله حوله وبشأنه ، كان الدور الثانى فى السجن انظف الادوار واكثرها سكونا .

ففى هذا الدور يقيم المسجونون السياسيون ، وهم اقل جلبة من

الاخرين واكثر نظافة ، ولكن الحراسة فى الدور أشد وطأة وأكثر صرامة . ولما كانت بعض الزنازين غير مسكونة فى الدور ، فان هذه يتم توزيعها على بعض المساجين المجرمين . ولما كان السكن فى الدور الثانى ميزة ، فقد اصبحت هذه الزنازين وقفا على تجار المخدرات . انهم اكثر الناس نفوذا فى السجن ، لانهم اكثرهم ثراء . وأعزهم مقاما لدى الادارة والحراس .

كانت زنزانة المعلم خضير تقع فى طرف الدهليز الايسر . وقبل ان يصل اليها سيد الحليوه ، انشقت الارض عن الشاويش سيف حارس الدور ، وهو أضخم حراس السجن جثة ، وأكثرهم عبوسا ، وأشدهم وطأة على الفقراء من المساجين .

وخاف سيد الحليوه من الشاويش سيف وارتعد بدنه كله ، وفكر فى الرجوع من حيث جاء . ولكن صوت الشاويش سيد الذى اصبح رقيقا كصوت ملاك بادره قائلا . .

ـ انت جيت ياسيد . دا المعلم فى انتظارك ، اتفضل . وتقدم بخطوات عسكرية نحو الزنزانة . . ووقف عند الباب وطرقه بأدب جم . وعندما جاء صوت من الداخل يسأل عن الطارق ، قال الشاويش سيف :

ـ خدامك الشاويش سيف يامعلم ، وسى سيد الحليوه وصل . عندئذ انفتح باب الزنزانة ، وظهر منها رجل كالوحش ، اضخم بكثير من الشاويش سيف ، عضلاته بارزة كأنها كتل حجارة مركبة ذراعين ، ورأسه محلوق بالموس . ونظر للشاويش سيف شذرا ثم ابتسم لسيد قبل ان يدعوه للدخول .

ما أغرب زنزانة المعلم خضير وما أشبهها بغرفة فى بيت احد الاثرياء . مرتبة لم تقع عيناه على أجمل منها . وخزانة لحفظ الملابس مصنوعة فى ورشة النجارة داخل السجن ، ورفوف عليها عرايس ولعب وتماثيل برونزية وصورة للمعلم خضير معلقة على الجدار . وأطباق صينى وفناجين شاى ، وبدل السجن معلقة على شماعات . ومائدة طعام قصيرة وصغيرة تتوسط الزنزانة ، وعليها باقة ورد انتقته بعناية يد خبير من حدائق السجن ! والمعلم خضير يتمدد بملابسه الداخلية فوق المرتبة يدخن سجاير الحشيش ، وفى يده مروحة صغيرة ، تعمل بالبطارية ، وبدا عليه انه مسطول وآخر انسجام ! وأشار لسيد بيده أن يجلس ، وأفسح له مكانا بجواره ، وراح الرجل ذو العضلات يعد الشاى للمعلم خضير وضيفه

الصغير . وبعد ان انتهى من اعداده ، قدم لهما الشاى فى فناجين نظيفة مزينة بالورد ، ثم استوى واقفا وقال للمعلم :

- أى خدمة يامعلم ؟

وقال المعلم وهو يرتشف الشاى بصوت مسموع :

- خليك واقف بره ، وما تخليش حد يدخل .

انزاح المعلم خضير من مكانه وتراجع للخلف حتى التصق ظهره بالحائط ، وجلس سيد الحليوة على حافة المرتبة مرتبكا . وتشاغل المعلم خضير فى لف السجاير المحشوة بالحشيش . وعندما انتهى من لفها ، مد يده بسيجارة لسيد ، وقال وهو يشعلها له :

- انت مرتبك ليه ؟ امال لو ماكنتش قاتل . شدم السيجارة عشان تتكيف .

جذب سيد الحليوه انفاسا متلاحقة ، وتصاعدت حلقات الدخان فى جو الزنزانة ، وربت المعلم خضير على ورك سيد الحليوة وقال وهو يضحك ضحكة عالية :

- القاتل ده بيبقى قلبه جامد ، لكن دا انت خرع قوى . وابتسم سيد الحليوه ولم ينطق ، فجذبه المعلم خضير ناحيته ، وقبله قبلة خاطفة على وجه ، ونزع طاقيته من فوق رأسه . وراح يعبث بأصابعه فى شعره ، ولم يدرك سيد الحليوه قصد المعلم خضير فى البداية ، ظن انه رجل طيب ، وانه يفعل خيرا لوجه الله . لقد اعطاه عشرة جنيهات ، ولف له سجاير مخلوطة . وقدم له الشاى ، وسيعطيه بدلة جديدة . ولكن الشك لعب فى صدر سيد عندما قدم المعلم خضير يده واحاط بها خصر سيد ، ثم ضمه اليه ضمة قوية ، وقبله مرة اخرى . وقال له فى لهجة امرة :

- قوم ياسيد اقلع هدومك ، الدنيا حر .

واعتذر سيد لأنه لايشعر بالحر ، وقال المعلم وقد تبدلت قسمات وجهه :

- طب أقلع عشان تقيس البدلة الجديدة . ورد سيد بأنه سيجرب البدلة الجديدة فى ورشة الترزية ، حتى اذا احتاجت لشىء من القيافة أعدها فاروق على الفور . عندئذ هوت يد المعلم خضير على وجه سيد فارتمى من شدة الضربة على الارض ، وقبل ان يفيق سيد من هول الصدمة ، عاجله المعلم خضير بكف اخر وكف ثالث ، وصرخ سيد الحليوه طلبا النجدة ،

ولكن احدا لم ينجده ، حتى باب الزنزانة ظل مغلقا عليه وعلى المعلم .
وهتف سيد فى توسل :
ـ انا فى عرضك يامعلم . وركله المعلم بقدمه ركلة اطاحت بسيد عند الباب ، ثم هتف على الوحش الرابض عند الباب فى الخارج .
ـ افتح للكلب دا خليه يمشى ..
عندما خرج سيد الحليوة وجد جموع المساجين وقد جذبتهم صرخاته ، يقفون فى حلقة فى اخر الممر ، وعندما اقترب منهم سيد ، تصاعدت ضحكاتهم وسخرياتهم فى الجو .. وهتف مسجون عابث :
ـ صباحية مباركة ، يابخت صاحب النصيب .
وأسرع سيد مبتعدا ، وهبط السلم باقصى مايستطيع ، وعندما أصبح فى الفناء ، غاب فى زحام المساجين .
ماأتعس الزمن ، وما أقسى غدره ، لقد تبدلت احوال سيد بعد هذه الحادثة فأصبح السجن غير السجن ، والناس غير الناس ، حتى عبده الابيض كشر عن انيابه ، وانقلب وحشا من الوحوش .
وقال عبده الابيض وهو يحاور سيد الحليوه ..
ـ ايه الحكاية والرواية .. ماتفهمنى ، عاوز تعيش شحات فى السجن ، واللى يسوى واللى مايسواش يديك على قفاك . والا عاوز تأكل لقمة نظيفة ، وتلبس هدمة نظيفة ، وتصرف قرش نظيف ، وأجاب سيد من خلال الدموع التى انهمرت على خده .
ـ أنا عارف ان على ليك فلوس ، لكن أنا هادفعها ياعم عبده ..
ـ وهتدفعها منين بقى ان شاء الله . أهلك بره ماشاء الله قوى . بهوات كلهم ومستوظفين ، مش تحمد ربنا ان حظك كويس ، والراجل الطيب خضير قلبه انفتح لك . طب ورينى واحد كده فى السجن مايتمناش نظرة رضا من خضير؟ وتمتم سيد فى كلمات متقطعة ..
ـ أنا مش بتاع الحاجات دى ياعم عبده .
وقال عبده الابيض .
ـ انت حر ، عقلك فى راسك تعرف خلاصك .. بس البدلة دى بقى مش بتاعتك ، والعشرة جنيه اللى ادهالك المعلم خضير مش لك ، وانت على كيفك ، مادام انت وش فقر ، خليك فى الفقر ! وانزوى سيد الحليوة بعد ان تجرد من الهدوم والفلوس فى الزنزانة .

وعندما فكر مرة فى الخروج الى الفناء عكمه الشاويش سيف من قفاه ، وضربه كفا القى به على الارض يتلوى من الالم ، وهاجمه حتى اراذل المساجين . وفى كل خطوة كان يهجم عليه مسجون قبيح المنظر نتن الرائحة ، يحتضنه ويقبله .

حتى المسجون المجنون الذى كان مجذوبا من مجاذيب السجن من قبل ، هجم عليه ذات مرة ، واحتضنه بقوة ، ثم وقف يهتف من شدة السرور .

ـ مدد ياخضير ، مدد . .

وهان كل شيء على سيد الحليوه . استعذب السجن الانفرادى ، واستعذب الجوع ، حتى السجاير التى يعشقها ، لم تعد تروق له ، ولكنه ذات صباح دخل عليه بدوى ، وهو مسجون محكوم عليه بالمؤبد ، وجلس على باب الزنزانة يتحدث مع سيد ويدخن ، ثم مد له يده بالسيجارة التى معه ، ولكن سيد اعتذر . فألح عليه ، فتناول سيد السيجارة واخذ نفسا عميقا قبل ان يردها اليه .

وارتسمت ابتسامة عريضة على شفة بدوى . وزحف على الارض حتى لامس جسمه جسم سيد ، ثم طوقه بقوة وراح يقبله كالمجنون ، وصرخ سيد صرخات مدوية ، وقاوم سيد بشدة ، وبدوى يحاول طرحه على وجهه .

وعندما اقتحم المساجين الزنزانة ، كان سيد على وشك الاختناق ، وقاد الشاويش سيف سيد وبدوى معا الى الادارة ، وامام الضابط روى سيد القصة ، وانكر بدوى رواية سيد ، وعندما جاء دور الشاويش سيف ، ذكر انه رأى بدوى فى زنزانة سيد ، واكد ان بدوى كان خارج العنبر عندما صرخ سيد مستغيثا ، وهكذا وقع سيد تحت طائلة العقاب ، وأمر الضابط بحبسه فى التأديب لمدة اسبوع .

ومرت الايام على سيد فى التأديب ، النهار كالليل ، فالزنزانة تسبح دائما فى الظلام ، والطعام تأنف الكلاب من تناوله . والرائحة نتنة كريهة ، كأن قبرا اثريا قد انفتح فجأة داخل عنبر التأديب والسكون شامل ورهيب وعميق حتى خيل لسيد فى وقت من الاوقات انه ميت ، وان الزنازين ماهى الا مقابر ، مدفون بها بعض الاحياء ، نتيجة خطأ فى تشخيص الطبيب .

ولكن . . ما أعظم الراحة التى يحسها سيد ، راحة لم يشعر بها من

قبل ، حتى وهو يعيش مع أمه وأبيه فى سقارة . وعندما تذكر سقارة شعر برائحة الحقول تملأ خياشيمه ، وتذكر ترعة الذوات التى تخترق القرية ، متدفقة بالمياه مرة ، راكدة اغلب الايام . وطاف بخياله نخيل سقارة الشهيز المثقل بالبلح الاحمر ، كان نارا حامية شبت فجأة فى اعالى النخيل ، وارتسمت ابتسامة على شفتيه الجافتين عندما تذكر جمالات . كانت طفلة ولكن كان لها سلوك النساء . وكانت جميلة ، عيناها ضاحكتان ، ووجهها باسم ، وشعرها الصغير يرفرف مع الهواء كالطير الجميل ، يالها من ايام بهيجة ولت الى غير رجعة ، ودنيا ذهبت ولن تعود . .

وافاق سيد من احلامه على صوت يناديه وخيل لسيد فى البداية ان الشاويش جاء بالطعام . وفرك عينيه وأصاخ السمع جيدا ، ولكنه اكتشف ان الصوت ليس صوت الشاويش ، وتساءل سيد عمن يكون الهاتف ، وجاءه الجواب « انا عبدالرحيم ياسيد » وتذكر سيد ان عبدالرحيم المسجون المتهم بغش الخبز ، كان قد طلع افراجا منذ شهور ، وهو صاحب مخبز فى قرية على بعد مرمى حجر من سقارة ، ويبدو ان عبدالرحيم قد عاد من جديد متهما بغش الخبز ، فهو لايكاد يخرج حتى يعود . وهب كالملسوع ، وقال لعبدالرحيم . . ايه الاخبار ياعم عبدالرحيم ، أمى ازيها . . وقال عبدالرحيم . . امك اتجوزت ياسيد وسابت البلد وماحدش عارف راحت فين »

وخيم الصمت على التأديب من جديد ، ثم هتف سيد بصوت كأنه صادر من المقابر « واتجوزت مين ؟ » واجاب عبدالرحيم « الولد عنتر اللى كان ماشى مع عليوه الله يجحمه » ! .

ولا أحد يعلم ماالذى جرى لسيد طول الليل ، ولكن الذين يجاورونه فى زنازين التأديب ، قالوا انه لم يكف عن البكاء . ولكنه لم يكن بكاء مألوفا ، ولكنه كان يصرخ ككلب داسته سيارة نقل على الطريق . وفى الصباح نادى سيد على شاويش التأديب ، وقال له فى استعطاف شديد . . ياعم احمد . . والنبى تقول لعم عبده الابيض سيد عاوزك ، قولله أنا خدامه ، قولله خلاص ، عبده هيفتح مخه ، هيفتحه ع الآخر ! .



الفصل الرابع

المسلكاتى

دخلت مستشفى السجن أول مرة ، زكمت انفى رائحة غريبة ، ظننتها فى البداية رائحة مرض او دواء ، ولكنى اكتشفت بعد فترة ان رائحة منبعثة من طبيخ يغلى فى إناء فوق النار ، وقد وقف يراقبها مسجون يبدو انه كان طباخا من قبل ان يأتى الى السجن ! ثم اكتشفت وانا جالس مع الدكتور اراقب منظر المستشفى الذى انقلب الى مطبخ ، ان المرضى الذين يقيمون فى المستشفى يتمتعون بصحة جيدة ، ويرتدون ملابس فاخرة ، ولديهم كل فاكهة الموسم .

وان لهم على الطبيب دالة ، بل اكثر من ذلك لهم على الطبيب سلطة ! دخل احدهم ونظر شذرا الى الطبيب وقال له فى جفاء :

ـ انت لسه قاعد ؟

وابتسم الدكتور ميشيل فى ادب مصطنع وقال فى صوت مرتعش :

ـ أنا خارج بعد لحظة ، والحاجات المطلوبة ستحضر لكم بعد قليل .

وعندما رأى علامات الدهشة على وجهى ، قال وعيناه تفضحان كذبه :
ـ انت مش عارفه مين ؟
وعندما هززت رأسى بالنفى ، أجاب :
ـ دا يبقى ابن عم البيه مدير مصلحة السجون ، مسجون سنتين ، والبيه المدير كل عدة دقائق يتصل بمأمور السجن يسأل عن اخباره وكان الدكتور ميشيل كاذبا فى ادعائه . فهذا الرجل كان مدير فرع لاحد البنوك فى القاهرة .

ثم خطر له فى لحظة تجلى ان يهرب مبلغا من المال من اجل تثبيت المكاسب الشعبية ، وتدعيم المسيرة الثورية ، فقد كان على علاقة وطيدة باحد الضباط الكبار فى مكتب المشير ! ولم يقدر للبيه مدير البنك ان ينام فى الزنزانة يوما واحدا على الاطلاق . دخل من باب السجن الى المستشفى مقابل مرتب شهرى قدره خمسون جنيها للدكتور ميشيل . الذى اثبت على تذكرته الطبية انه مريض بالسكر ويعانى من احتباس فى البول ، وضعف عام ، واشتباه فى درن رئوى . كان كل من فى السجن يعلم ان السر معروف للجميع ، ومع ذلك كان لايكف عن ترديد قصة قرابة المسجون اياه للبيه مدير المصلحة !

ومنذ ذلك الحين بدأت اكتشف سر مستشفى السجن . . المستشفى يتكون من عنبرين ، كل عنبر يحتوى على عشرين سريرا ، وليس فيها من مواصفات المستشفى الا الاسم ! فالارضية متآكلة ، والسراير منظرها يسد النفس ، والادوية تسبب المرض ولا تشفيه ، والممرضون كانوا فى الاصل حراسا ، عجزوا عن اداء مهمة الحراسة فتحولوا الى « ملائكة » رحمة ، والطبيب اعوذ بالله . . كتلة من الشحم واللحم . كل مافيه منبعج ومنتفخ . تزوج من فتاة تصغره بعشرين عاما ، وثرية ومن عائلة معروفة ، ثم اصيب فجأة بضعف عام ، جعله شديد النهم لجمع المال . ولحظة مد الطبيب يده ، ظلت مبسوطة على الدوام . يرتشى ابتداء من السجارة والى المرتب الشهرى من المسجونين السمان ! ويطلب كل صباح كشف الزيارات ليلقى نظرة عليه ، ليتسول غداءه من المعلمين الكبار الذين اصابهم الدور فى الزيارة ، وكان يؤثر بعض الاطعمة فيطلبها بنفسه بالتليفون من اقارب المسجونين . وكانت طلباته تبدأ بالدجاج واللحوم وتنتهى بالفلفل الاسود !

ولما كانت المستشفى مكونة من عنبرين ، فقد خصص الطبيب عنبرا للمرضى المشرفين على الهلاك ، وخصص العنبر الاخر للمسجونين السمان ، من يدفع يقضى كل المدة بالمستشفى . ومن يتوقف مرة واحدة

يطرد شر طردة ! ورغم محاولاتى العديدة لدخول المستشفى الا اننى لم افلح . فقد كانت مسألة دخول المستشفى ـ كما الحال مع المسجونين السياسيين ـ لابد ان تحظى بموافقة الجهات العليا ! . . ولكنى تمكنت من دخول المستشفى قبل شهرين فقط من انتهاء مدة سجنى ، فقد طلبت فى خطاب رسمى تحويلى الى مستشفى القصر العينى ، فسمحوا لى بدخول مستشفى السجن .

وبالرغم من قذارة المستشفى وبؤسها ، فقد شعرت بأننى خرجت من جوف الكهف الى حيث النور والهواء ! فعندما يغلق السجن ابوابه ، وتهدأ الحركة تماما ، تدب الحياة فى المستشفى وتصبح مثل خلية نحل !

كان سريرى يحتل الركن الايمن عند الباب ، وكنت قد اويت الى الفراش بعد الظهر واغفيت فترة ، واستيقظت على ضجة المستشفى ، وخيل الى فى البداية ان هناك تفتيشا للمرضى ، ولكنى فوجئت ببعض المساجين يوقدون نارا ويطهون لحما ويهيئون طبقا من السلاطة الخضراء . ويغسلون فاكهة ! والبعض الاخر ينفخ النار فى كمية من الفحم ويعدون « جوزة » وبعض المعسل ! وتصورت اننى فى غرزة حشيش ولست فى مستشفى داخل اسوار سجن .

وفجأة وقع بصرى على رجل طويل القامة ، عريض المنكبين ، له لحية تضفى عليه وقارا شديدا ، وترسم مع شيخوخته الجليلة صورة للرجل الطيب الذى أوقعه سوء حظه النحس فى هذا المصير !

كان الرجل يجلس على السرير ، يعبث بحبات مسبحة ثمينة . وبدا لى من احترامات الجميع المبذولة بلا حساب للرجل الكبير ، انه اعظم شخصية فى المستشفى وانه صاحب الامر والنهى فى هذا المكان ، وعندما التقت نظراتنا القى على تحية المساء . وقال بصوت خشن (مراحب ياسعادة البيه ، انت نورت المستشفى) . ثم امر لى بالشاى ، فجاء احد المسجونين بكوب الشاى على عجل . ثم دعانى للعشاء على مائدته احتفالا بقدومى للمستشفى . وقبل ان يتهيأ العشاء ، قام الرجل وصلى صلاة المغرب ثم العشاء ، ثم جلس طويلا بعد صلاته يبتهل الى الله بصوت خفيض ويتلو ادعية كثيرة . وعندما جلسنا نشرب الشاى بعد عشاء دسم فاخر يندر وجود مثله فى مثل هذا المكان ! جلس الرجل يحدثنى فى ود شديد عن حياته خارج السجن .

فهو معلم كبير من تجار المخدرات فى حى البطلية . اسمه اشهر من اسم وزير الداخلية ، الحاج سعد المسلكاوى ، وهو يتاجر فى الافيون

ولايتاجر فى الحشيش . وقد اقتنى ثروة طائلة من تجارة الافيون ، ولديه عدة عمارات فاخرة على شاطىء النيل ، واسطول من سيارات التاكسى ، وأموال سائلة بلا حساب ! ولديه عدة دكاكين لبيع الدخان والسجاير ، ذرا للرماد فى العيون ! وهو يدفع مرتبات سخية لرجال الأمن المكلفين بمكافحة المخدرات . وبالرغم من ذلك فهم يقبضون عليه احيانا ، ولكنهم يرتكبون اخطاء فاحشة فى اجراءات القبض عليه . تجعل من السهل على أى محام ضليع فى القانون ان يخرج من المحكمة وفى يده الحاج سعد المسلكاوى ، ولذلك لم يدخل السجن قط ، رغم انه شيخ تجار الافيون منذ عشرات السنين !

ولكن الضربة جاءته هذه المرة من حيث لم يحتسب ! كان جالسا بعيدا عن البطلية فى منزل تاجر مخدرات صديق فى حى المطرية . وكان ساهرا مع شلة من الاصدقاء يدخنون الحشيش ويروون النكات . عندما داهمتهم قوة من الشرطة وامسكت بهم متلبسين بتدخين الحشيش !

وعند تفتيشهم عثروا مع المعلم سعد المسلكاوى على قطعة حشيش تزن نصف كيلو . قرر هو أنها للمزاج ، وقالت النيابة انها للاتجار . ولما كانت الكمية بسيطة فقد اكتفت المحكمة بحبسه لمدة سنتين . . سيقضى منها ثمانية عشر شهرا ثم يغادر السجن ، لانه كما تشهد بذلك كل التقارير ، حسن السير والسلوك !

وسألنى المعلم سعد وهو يشفط نفسا عميقا من المعسل المغموس بالحشيش :

ـ والبيه كان يشتغل ايه فى الحكومة ؟

ـ صحفى . .

ـ آه . . جرنالجى يعنى

وعندما اجبته بالايجاب ، جذب عدة انفاس عميقة متلاحقة ثم قال فى هدوء وفى ثقة :

ـ أقولك بصراحة . . كلهم حشاشين . .

وعندما سألته عمن يقصد ، أجاب بهدوء :

ـ الجرانالجية ، مش همه بس ، وكمان بتوع النيابة والبيه مأمور السجن والضباط ، كلهم حشاشين . الحكومة كلها بتحشش يافندى ، ومش عارف بيمسكونا ليه ؟ . .

وراح المعلم المسلكاتى يروى قصصا مثيرة عن ضباط كبار كانوا يقبضون مرتباتهم من المعلم اول كل شهر ، وعن أشخاص مسنودين كانوا يسهلون عملية تهريب المخدرات لقاء الاجر ثم قال يؤكد كلامه :

ـ طب بتخش ازاى المخدرات تعرف تقوللى ، عفاريت زرق بيدخلوها البلد ؟ ثم ضحك ضحكة ناشفة متقطعة قبل ان يستطرد :

ـ ماعفريت الا ابن ادم .

وفجأة حدثت ضجة عند الباب ، ومفتاح ضخم يدور فى القفل الاكثر ضخامة . ثم انفتح الباب على مصراعيه وفوجئت بالضابط النوبتجى النقيب الدسوقى يقف بلحمه وشحمه فوق رؤوسنا ، والفحم والع ، والجوزة شغالة ورائحة الحشيش تعبق فى جو المستشفى . . واحسست بقلبى يغوص حتى قدمى ، وجف ريقى ، وجف دمى ايضا ، وفقدت القدرة على النطق ، وظللت جالسا مكانى ابحلق مذهولا فى الضابط ، لاننى فقدت ايضا القدرة على القيام . .

خيل الى لحظة رأيت الضابط الدسوقى يدخل علينا انه ربما كان الموقف كله كمينا اعدوه باحكام ، وهأنذا واقع فى الكمين ومتلبس . واذا كان موعد الافراج عنى فى قضية سياسية سيحل بعد اسابيع ، فاننى حتما سأواصل السجن ولكن فى قضية مخدرات !

وبدت علامات الارتباك على وجه الضابط الدسوقى ، ووقف حائرا لايدرى ماذا يفعل ، ومن خلفه حارس الليل وقد أمسك بمجموعة مفاتيح السجن فى يده . وفجأة وجه الضابط حديثه الى وقال وهو مندهش :

ـ هو سعادتك هنا ؟

سعادتى ؟ ظريفة ! هل يلعب الضابط بأعصابى ؟ هل يسخر منى ؟ ثم قال على الفور :

– أنا لما عرفت ان سعادتك هنا جيت أمسى عليك . وتدخل المعلم المسلكاتى الذى كان الارتباك يسيطر عليه :

– ماتبطل أمـور الأونطة دى بقى ، ما تعقـد أمال ، البيـه منتا وعلينا وآخر مزاج . وكأنما وجد الظابط الغريق طوق النجاة وتعلق به على الفور .

وأجاب وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه . .

– كده ، طيب مـساء الخيـر . وانحنى ورائك بالجوزة . وشفط نفـسا طويلا عميقا ، ثم أنفاسا قصيرة متلاحقة وقال وهو يخرج الدخان من أنفه فى خيط طويل متصل :

ـ ياسلام ، دا عنبر . . ثم جلس فى هدوء بينما انحنى الشاويش العجوز على الجوزه يتناول نصيبه من الانفاس . وراح الضابط يبدى ارتياحه الشديد لوجودى فى المستشفى . فهنا الجو حرية اكثر ، ومزاج اكثر ، وهى على اية حال فترة لازمة استعدادا للافراج . وعندما عزم المعلم المسلكاتى على الضابط ان يتعشى رفض بشدة . وعلل اعتذاره بأنه تناول العشاء فى فرح احد الاصدقاء قبل أن يحضر الى السجن مباشرة . وعندما علق المعلم المسلكاتى :

ـ يابختك ياعم . بتحضر افراح .

راح الضابط يشرح الاسباب التى دعته لحضور الفرح فهو مقبل على الاحتفال بعقد قران كريمته الكبرى ، ولذلك حضر الفرح ليتفق مع المطرب رشدى على احياء الفرح . ولكن الاتفاق لم يعجبه ، فقد أصر المطرب على ان يقبض اجرا كبيرا ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة كما ترون . يحسدون الضباط.هكذا قال الضابط وهم فى الحقيقة شحاتون . المطرب اصر على ان يتقاضى ثلاثمئة جنيه فى ليلة واحدة وهى مرتب ستة شهور للضابط . ستة شهور من التعب والعرق والسهر والمسئو لية . وآه من مسئولية الضباط . أقل هفوة قد تطيح بهم ، اصغر خطأ قد يودى به ، ربما حادث يقع بالقضاء والقدر يلقى به من شاهق !

وراح الضابط يحكى لنا عن حادث وقع قضاء وقدرا عندما كان يعمل معاون نقطة فى الصعيد . فقد امسك بلص ، واثناء استجوابه انكر اللص وابدى عنادا شديدا واصرارا على الانكار رغم جميع الوسائل التى اتبعها معه . وفى موجة من موجات الضرب التى كان يكيلها له ، وقعت العصا على مقتل من جسده ، فسقط ميتا بلا حراك قضاء الله وقدره ! فلم يكن الضابط الدسوقى يقصد قتله ، ولكن عمره انتهى . . ولكل اجل كتاب ! ولكن النيابة لاتحترم القضاء والقدر ودخل الضابط الدسوقى فى دوامة سين وجيم ، وأوقف عن العمل فترة ، ثم اطاحوا به الى الوادى الجديد . وعندما اظهر الله براءته ، وامام محكمة الجنايات ، نقلوه الى مصلحة السجون ، حيث التعب أشد والمسئولية اكثر .

وتمتم المعلم المسلكاتى بكلمات قليلة . .

ـ بس السجون خيرها كثير وربك عالم بحالك يابو خليل . وقال الضابط فى صوت حزين :

ـ والله خيرها ماهو على قد بلوتها ، ورد المعلم المسلكاتى :
ـ أحمد ربنا ، دا ياما ضباط حاسدينك ياابراهيم .
ـ على ايه ياحسرة ؟ تكونش فاهم الناس كلها زيك يامعلم .
طب سجن زى ده ، تعرف تقوللى فيه مين ؟
وقال المسلكاتى وهو يحكم ربط العمامة فوق رأسه . .
ـ أهو فيه برضه . خير ربنا كتير . المعلم على عيسى والمعلم أمل . والمعلم . . وقاطعه ابراهيم الدسوقى ، كأنما أدرك ان المعلم المسلكاتى يعرف كل شىء عما يدور خلف أسوار سجن القناطر . وقال الضابط وهو يحاول انتزاع عطف الحاضرين ؟
ـ طب بذمتك حد يعمل اللى انا باعمله يامعلم ؟ وأعطاه المعلم شهادة تفوق على الفور :
ـ انت جدع يابو خليل .
وعند هذا الحد توقف النقاش بين الجميع . وضرب الضابط يده فى جيبه فأخرج قطعة حشيش حجم فردة حذاء مقاس كبير . . وقال للمعلم وهو يطرحها بين يديه .
ـ تموين الاسبوع ده يامعلم والجماعة بيسلموا عليك . وقال المعلم المسلكاتى بعد ان شال الحشيش .
ـ جماعة قلالات الأصل ، هيه دى اللى قدروا عليها .
وقال الضابط :
ـ على فكرة ، همه جايينلك زيارة بكرة . وساد الصمت بيننا من جديد . وانهمك الجميع فى شفط انفاس الجوزة ، وفى تذوق الصنف الجديد وارد الليلة . وعندما ابديت استحسانا بجودة الصنف الجديد . قال المعلم المسلكاتى :
ـ دى حاجة جديدة اسمها ام سفينة ، نزلت قريب بس دهب ، أحسن من أم أكرم ، وخدنى لحنانك ، حاجة حلوة من غير مؤاخذة تشعل الدماغ من جوه النافوخ !
كان الليل قد انتصف تقريبا ، وصوت الحراس يتصاعد ويتصاعد ويشتد صاخبا فى الظلام .
وبعض المساجين يتشاجرون فى العنابر البعيدة وقد خفت الاضواء فى المستشفى ونام بعض النزلاء واستيقظ البعض الآخر . ونباح كلاب يأتى

الى مسامعنا من المزارع القريبة ، ونقيق ضفادع يختلط بصوت المياه المتدفقة فى الرياح المنوفى ، وعسكرى يتشعلق السور أراد ان يثبت نشاطه للضابط الذى دخل السجن يزعق بالصوت الحيانى واحد تمام . ثم يخف الصوت تدريجيا كلما انتقل العدد الى اثنين وثلاثة واربعة ، فاذا وصل الى رقم ١٤ ، خيل الى انه اضغاث احلام قديمة !

ورفت على شفتى ابتسامة غريبة ، ما الذى جمعنا هنا وفى لحظة الزمان بالذات . وأى صحبة جميلة ، سياسى مسجون وتاجر مخدرات وبعض اللصوص والبلطجية وضابط نقيب وحارس عجوز ، والكل يشفط انفاسا معطرة ، وينفثون دخانا أزرق ، الشعب والسلطة فى الذ تحالف ! المعارضة والحكومة فى احلى قعدة !

تحالف قوى الشعب العامل فى جلسة عمل وردية ، بينما الحراس يصرخون فوق الاسوار ! ترى لماذا يصرخون ؟ لتخويف المسجونين ؟ أم لطرد الخوف من انفسهم ؟ ومع ذلك فكل شىء تمام ! واحد تمام واثنين تمام ! وثلاثة تمام ! لامخالفة ولاخروج على النظام . والمعلم المسلكاتى يبدو وجهه هادئا كوجوه السلف الصالح . بينما يبدو الاجهاد الشديد على وجه الضابط الذى بدأ حياته كونستابلا ممتازا ، وظل يترقى حتى يصبح نقيبا فى الثانية والخمسين ! وعندما دققت النظر فى وجهه اكتشفت انه شرد بعيدا . من يدرى ربما يفكر فى الديون والهموم . ربما يتمنى فى اعماقه لو تبادل مع المعلم المسلكاتى مركز يهما فى الحياة ! فما احلى ان يكون الانسان مسجونا له كل هذا الهيلمان ، وما أتعس ان يكون ضابطا يعانى من كل هذا الشقاء .

وكأنما لاحظ المعلم المسلكاتى شرود الضابط فلكزه بلطف وصاح فى حنان :

- هيه . رحت فين ياسعادة البيه .

وأفاق الضابط من شروده فأجاب وعلى شفتيه ابتسامة باردة

- ابدا ، انا معاك هنا . وتمتم المعلم المسلكاتى :

- صل على سيدنا النبى .

وهتف الجميع بالصلاة على سيدنا النبى ، وقال الضابط: كان نفسى تكون بره عشان تحضر معانا فرح البنت !

كانت صفارة حارس الفناء تدوى فى جوف الليل ، وكان الحارس العجوز هو أول من انتبه اليها فصاح ينبه حضرة الضابط :

ـ دى اشارة خطر يابيه . وقال الضابط مستهزئا :
ـ حيكون خطر ايه يعنى ، اليهود هجموا ، أسأل الحمار ده فى ايه ؟ وفتح الحارس العجوز النافذة ، ونادى على حارس الفناء . وبعد أن لعن ستسفيل أبوه ، سأله عن سبب الصفارة وأجاب العسكرى المذعور فى الفناء .
ـ مسجون مات يافندى
وقال الحارس العجوز
ـ يعنى دكتور والا الطبيب الشرعى انت . شفته ميت
ـ احد المساجين بلغنى .
ـ وفين زنزانة المرحوم ان شاء الله .
ـ فى دور اربعة عنبر « ب »
عندما سمع الضابط موقع المسجون الذى ربما مات وربما يتهاوت . هدأ روعه وقال حازما .
ـ أياك يموتوا كلهم . . عشان نرتاح من قرفهم .
كان دور اربعة هو مجمع حثالة المساجين . صغار اللصوص والنشالين ، والمتسولين ، والذين لا أهل لهم ولا مورد ! وموت واحد منهم أو أكثر لن يثير ثائرة حشرة فى ديوان مصلحة السجون . ولذلك انشغل الضابط مرة اخرى بتقليب الفحم على النار ، بينما الحارس العجوز مشتبك فى نقاش حاد مع حارس الفناء وصياح المساجين فى العنابر يتصاعد للسماء .
وفجأة ، وقف المعلم المسلكاتى وتناول كوبا من الماء كان الى جواره ، وصبه على الفحم المشتعل ، فخمدت النار على الفور واحدث خمودها صوتا سرعان ماخفت وتلاشى بالتدريج . ونظر الضابط الى المعلم المسلكاتى علة يجد على ملامحه تفسيرا لهذا التصرف .
كان وجه المعلم جامدا ، وجبينه مقطبا . وقال وهو ينهض من السرير :

ـ كفايه كده الليلادى ، شوف الواد اللى بيموت دا حكايته ايه ؟
رد الدسوقى وقد بدأ مسطولا على الاخر
ـ دا عيل صايع مايموت فى داهية .
وقال المعلم وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة فاترة . .

ـ دى روح مهما كان ، وحرام عليك . ونهض الدسوقى فى تثاقل ، وقال وهو يحكم ربط الحزام حول وسطه ، ويعدل من وضع الكاب فوق رأسه .

ـ انا بس كنت عاوز اتفاهم معاك على حكاية الفرح بتاع البنت ، أصل الحالة نار زى ماانت عارف ، والواحد ما بقاش فيه حيل .

وقال المعلم وهو يربت على ظهر الضابط :

ـ ان شاء الله هتفرج ، وكل شيء هيبقى عال ، وانا حكون بره يوم فرح البنت وهنعمل واجب . . وارعش الدسوقى حاجبيه . وقال فى أدب مزيف :

ـ يسمع من بقك ربنا . وقال المعلم : انت عليك تجيب الورق م المصلحة اقوم اخرج بعد اسبوعين ونحضر الفرح ، ونفرح كلنا مع بعض .

ـ بس . . انت عارف . .

ـ مفيش بس ولاحاجة انت قدها وقدود . . روح شوف الواد اللى بيموت ده . وتوكل على الله ، وشوف حالك ، دول خمسميت جنيه يابيه كل جنيه ينطح اخوه شوف اكل عيشك يابوخليل انت راجل كبير ودى حاجة هايفة .

عض ابراهيم شفته السفلى بغيظ وتلمظ كأنه قطة جائعة ، وضرب بيده على فخذه . وقال وهو ينظر للمعلم بغيظ مكبوت :

ـ على كل حال اللى فيه الخير يقدمه ربنا .

كان صياح المساجين يتصاعد للجو عندما خرج الدسوقى ، وزعق عسكرى انفناء انتباه ، اشارة الى ان الضابط قد حضر .

واشتدت الضجة فى العنابر وفى الفناء ، واتجه المعلم المسلكاتى الى النافذة فاغلقها وغاب الضجيج خلفها ، وعاد المستشفى تغرق فى هدوء لزج متوتر . وكان خدم المعلم المسلكاتى قد انهمكوا فى اخفاء كل شيء وتنظيف المكان بعناية .

وعندما تمدد على السرير استعدادا للنوم ، القى نظرة خاطفة نحوى ، فوجدنى مازلت جالسا فى مكانى ، ساهما مسطولا ، وقال المعلم وهو يشد الحزام على جسمه :

ـ اونطجى ابو خليل ده . . عاوز ياخد من غير مايدى ، مش كفاية مرتب شهرى قد مرتبه من الحكومة ، وبعدين قلت له على خدمة بسيطة ، عاوز

يعمل حدق ، لكن على مين . وحياتك ان ماراح المصلحة واتفق مع الباشكاتب على تعديل التواريخ ماهو شايف حاجة . . اصلى انا يافندى بدل ما أقعد هنا ثلاثة اشهر ، اقعد اسبوعين وبدل شهر ١١ يقلبها شهر ٨ ، فيها ايه دى ؟

وعندما بدت الدهشة على وجهى ، قال وهو يضحك :

ـ يوه ، دى بتتعمل كثير قوى ، انت فاهم حد م المساجين السمان بيطلع فى ميعاده الحقيقى ،، اللى يدفع بيطلع ، مصلحة طبيخ يابيه . بكرة احكيلك على كل حاجة .

وسرعا ماغط فى نوم عميق !

خلال أيام قليلة كانت العلاقة قد توطدت بينى وبين المعلم المسلكاتى ، كان ودودا وسعيدا على نحو ما ، ولم يكن يشعر بالوحدة فى سجنه ، فقد أحاط نفسه بعدد من الأصدقاء ، سكنوا جميعا فى المستشفى ، وعدد آخر من الخدم ، وكان طعام الجميع وشرابهم ومزاجهم على حساب المعلم ومن جيبه الخاص ، وكان يدفع لهم ثمن الاقامة فى المستشفى . وهى بالطبع بالمجان ، ولكن هناك تسعيرة وضعها الدكتور ميشيل أجرا عن المبيت فى المستشفى وهى مائة جنيه شهريا لتاجر المخدرات ، ومائة جنيه للمختلس ، وخمسون جنيها للمتهم فى جناية رشوة ، وخمسة وعشرين جنيها للمتهم فى جريمة قتل . أما السياسيون فكانت التسعيرة تخضع للظروف والتساهيل ! وكان للخدم حساب خاص ، فقد كان الدكتور ميشيل لايساوم بشأنهم كثيرا . لانه كان يستخدمهم فيه تنظيف المستشفى، وفى جمع الاتاوات من المرضى المترددين على المستشفى كل صباح .

ولم يكن هؤلاء الخدم خدما بالمعنى المعروف للكلمة ؛ ولكن كان من بينهم الموظف والعامل وتاجر المخدرات الفقير . ولم يكن فى استطاعة هؤلاء أن يواجهوا نفقات السجن الباهظة ، ولذلك تحولوا الى خدم داخل السجن ، وكان حظ المعلم المسلكاتى من السماء ، فقد عثر على طباخ درجة أولى كان فيما مضى من الزمان ، يعمل طباخا بفندق درجة أولى فى الاسكندرية ، وخلال خناقة حامية بينه وبين أحد الشبان ، لخلاف حول فتاة ، صفع الطباخ غريمه الشاب صفعة قوية قلعت عينه واطفأت فيها النور . وجاء الى السجن لقضاء عقوبة مدتها ثلاث سنوات .

ويبدو أن ظروفه المادية لم تكن على مايرام ، فقضى فى السجن عاما

يعانى ، الى أن التحق بخدمة المعلم المسلكاتى . وبقدر ماكان الطباخ المدرب نعمة على المعلم ، كان أيضا نقمة عليه ، فالمعلم رجل مشهور ، وحبايبه فى السجن اكثر من الهم فى القلب . وقد ذاع صيت الطباخ لاتقانه اصنافا معينة . وكان على المعلم أن يلبى كل طلبات أصدقائه فى السجن . وكان عليه ايضا أن يلبى طلبات بعض الضباط الذين يقضون الليل داخل الاسوار .

وكان فى السجن ضابطان مسئولان مسئولية مباشرة عن العنابر ، وكانا فى سن متقاربة ، ولهما نفس البداية ونفس السلوك . الضابط الدسوقى والضابط أبو بكر . وكانا يتناوبان السهر فى السجن ويكلفان باعمال تستغرق كل وقتهما حتى وهم خارج الاسوار ، فكثيرا ما كان البيه المدير يكلف احدهما بالعثور له على قطعة غيار نادرة لسيارته الفيات الصغيرة ، أو البحث له عن عمال بياض للعمل فى عمارته الجديدة التى يشيدها فى ضاحية مصر الجديدة . . وكان المدير والمأمور ونائب المأمور يعاملوهما معاملة سيئة . والسبب انهما لم يكونا فى الاصل من فئة الضباط . ولكنهما كانا مجرد كونستابلات ارتقيا فى سلك الوظيفة حتى بلغا مرتبه الضباط . ولكن سلوكهما وهيئتيهما ظلت أقرب الى العساكر منها الى الضباط ، رغم النجوم التى تزين اكتافهما ، وصرخة الحارس بكلمة انتباه التى تسبق دخولهما الى العنابر .

وكان الدسوقى أطيب من أبو بكر واكثر شعبية لدى المساجين . . فقد كان يكفى تدخل أحد المساجين الاثرياء لدى الضابط الدسوقى لكى يعفو عن مسجون فقير ارتكب ذنبا داخل العنبر ! على عكس الضابط ابو بكر الذى كان شغوفا بتعذيب الاخرين ، واحيانا عندما لايجد شخصا يعذبه ، كان يلجأ لتعذيب العنبر كله ، باغلاق الزنازين فى الثالثة بعد الظهر ، مع أن اللائحة تنص على اغلاق الابواب فى التاسعة مساء صيفا ، وفى السابعة شتاء .

وعندما كان احد يسأله عن سر اغلاق الابواب فى هذا الوقت المبكر ، كان يرد بلا مبالاة :

ـ احسن من خوتة الدماغ !

ولكن الضابطين معا كانا يشتركان فى ارهاق المعلم المسلكاتى ، بما يطلبانه من أصناف الطعام والشراب والدخان ، وكثيرا ماكانا يطلبان سلفة

عاجلة ، عدا الراتب الشهرى ، وكان المعلم المسلكاتى يبدى كرما ونخوة تجاه مثل هذه الطلبات .

وكان لكل ضابط منهما سجين مدرب يساعده فى اعماله داخل السجن . ويطلق عليه اسم النوبتجى ولكن هذا النوبتجى كان يتفرغ عادة للاعمال غير المشروعة التى يقوم بها الضابط . وكان نوبتجى الضابط الدسوقى اسمه روبير ، وهو يهودى مصرى مصاب بعاهة مستديمة فى ساقه من اثر رصاصة اطلقها عليه احد رجال الشرطة عقب عملية سطو جريئة قام بها على احد البنوك ، واستطاع روبير الحاذق الخبير . الملم تماما بخفايا السجن واحواله ، الذى يحفظ عن ظهر قلب لائحة السجون المصرية ، والذى فرض من نفسه مركز قوة على الادارة وعلى الضابط الدسوقى على نحو خاص ، استطاع روبير أن يجعل من نفسه ندا للضابط ! ومتساويا معه فى الحقوق ، وشريكا له وعلى قدم المساواة فى الارباح . . وكان الضابط اذا طلب سلفة خمسة جنيهات من المعلم ، طلب روبير نفس المبلغ لنفسه ايضا . وعندما شكا لى المعلم من تصرفات روبير الجنونية ، وطلباته التى لاتتوقف عند حد . قلت له :

ـ طيب وانت بتديله ليه ؟

وهز المعلم المسلكاتى رأسه فى دهشة من سؤالى ، وقال وهو ينتقل من مكانه ويقترب منى اكثر :

ـ حاكم دا واد شر ، وبعدين يعرف حاجات كتير ولو فتح بقه ، هيوقف المراكب السايرة !

واخذنى الحماس فرحت اشرح له كيف أن خوفه ليس فى محله . فلو فرض وتكلم روبير ، فان كل ماسيخسره المعلم هو مغادرة المستشفى والرجوع للزنزانة ، وعلى فرض أن هذا حدث ، فليس امام المعلم الا عدة اشهر قليلة ، يستطيع أن يتحملها دون ان يضطر للخضوع لروبير . واشعل المعلم المسلكاتى سيجارة ، وكانت هذه عادته كلما استمع الى كلام لايعجبه ، وقال وهو يشفط نفسا عميقا :

ـ اول هام مادام طلباته مقدور عليها يبقى فى ستين داهية . وعلى رأى المثل ، اللى بيجى فى الريش بقشيش ، تانى هام مين قالك اننا هقعد الكام شهر دول . أن شاء الله افراج قبل منك ، ولما تطلع امانة عليك تزورنى فى البطلية . لازم نقعد مع بعض سوا قعده حلوه . ولما ابديت دهشتى لوثوقه

بان يوم إفراجه قبل يومى ، مع أن التواريخ تؤكد عكس ذلك .
قال وهو يضحك ضحكته المعهودة :
ـ حاكم انتو بقى يابتوع السياسة ، عليكو تشديد شوية ، لكن الجماعة الغلابة اللى زينا مقدور عليهم ياسيدى ، وأنا مكتوب فى الدوسية بتاعى أن سجنى ابتدأ شهر ١١ ولما ١١ تنقلب ٨ اخرج قبل ميعادى بثلاث شهور .
ـ طيب ولما يعرفوا المسألة ؟
ـ ولاحاجة ، ارجع اقضى الثلاث شهور تانى .
ـ طيب وليه خوتة الدماغ دى ، ماتقضيهم وخلاص ؟
ـ مش لو عرفوا . . لكن همه حيعرفوا منين . بعد الافراج بيحرقوا الورق ، لو دوروا عليه تحت طقاطيق الارض مش حيلاقوه .
وصمت لحظات قليلة ثم قال وقد لمعت عيناه ببريق غريب :
ـ ثم انا لازم اكون بره يافندى فى الفترة اللى جايه . . انا لو خرجت حاكسب مليون جنيه . ولازم اكون بره .
وراح المعلم المسلكاتى يشرح لى كيف أن هذه العملية روتينية بحتة ، لا تكلف الباشكاتب الا تزويرا بسيطا فى الاوراق ، ثم أن الاوراق نفسها ستختفى تماما ولن يكون لها اثر بعد ذلك .
وحكى لى كيف خرج المعلم خضير والمعلم قرقر ، صحيح انهم دفعوا مبالغ باهظة ، ولكنهم ايضا اختصروا من سجنهم سنوات طويلة ، وقال لى أن احدهم دفع مرة عشرين الفا من الجنيهات مقابل اختصار ثلاث سنوات .
وكان محكوما عليه بالمؤبد ، ويستحق الافراج عنه بنصف المدة . وكان قد دخل السجن عام ١٩٥٥ ، فجرى القلم على الارقام فقلبها الى ١٩٥٢ ، عملية بسيطة لم تستغرق سوى لحظات . ولكنها حققت للمعلم اياه أن يخرج من السجن عام ١٩٦٧ بدلا من عام ١٩٧٠ .
وضربنى المعلم المسلكاتى على كتفى ضربة خفيفة ، وقال وهو ينهض من مكانه بجانبى ، متجها الى مكانه المعتاد :
ـ الكلام دا بينى وبينك ، انا بقولهولك عشان بس تعرف الدنيا ما شيه ازاى .
كان احوال الضابط الدسوقى قد ساءت كثيرا عقب تلك الليلة الحافلة .

فقد مات الولد المسجون الفقير ، واثبت الطبيب الشرعى الذى انتدب من خارج السجن أن الاهمال فى اسعافه ..ساعد على حدوث الوفاة ، فقد نزف الولد طويلا حتى مات . وشهد بعض المسجونين فى العنبر أن الضابط كان متواجدا فى المستشفى عندما استنجدوا به . ولكن لم يحضر الى العنبر الا بعد ساعات .

صحيح أن طبيب المستشفى شهد فى صفه ، وكذلك الممرض الذى كان فى نوبة الليل . كما شهد ايضا عدد من المساجين فى العنبر فى صف الضابط وعلى رأسهم روبير . الا أن الضابط الدسوقى بدأ مهتزا للغاية وقلقا على غير العادة . . وقال لى وهو يحكى تفاصيل التحقيق الذى جرى معه :

ـ اهو كان كل شىء قدامك ، لكن على رأى المثل ، خير تعمل شر تلقى . . ولم اعلق انا على كلامه بشىء !

وكأنما تحطم شىء مافى داخل الضابط ، فقد بدا شاردا وساهما بشكل واضح . . وصارت قبضته على المساجين الغلابة اقل احكاما . ولما ابديت مخاوفى للمعلم المسلكاتى ، من أن الضابط ربما لم يعد متحمسا لموضوع تزوير الاوراق ، ضحك المعلم وقال :

ـ ايه علاقة ده . بده ؟ دا شغل ودا شغل يافندى . . وضحك ضحكته الطويلة المتقطعة وقال وهو يغمز بعينه :

ـ امبارح استلم الفلوس .

وذات صباح غادرت السجن فى طريقى الى المحكمة ، للفصل فى قضية مرفوعة ضدى من بعض الضباط اللصوص الذين كانوا يسيطرون على شركة من شركات القطاع العام .

وعندما عدت الى السجن بعد الظهر ، كان يسبقنى نبأ هز السجن هزا ، فقد اوقف الضابط الدسوقى عن العمل تمهيدا لنقله .

وعندما نظرت للمعلم المسلكاتى لأرى وقع النبأ على وجهه ، لم أستطع أن اتبين شيئا . كان هادئا ساكنا كالعهد به . وعندما ابديت له ماكان يعتمل فى نفس تجاه موضوع نقل الضابط الدسوقى وعلاقته بموضوع الافراج عنه . قال بنفس النغمة الهادئة الواثقة :

ـ ابدا ، ولاحاجة ، كل حاجة ماشية تماما .

وأعتقدت أن كبرياء المعلم المسلكاتى يفرض عليه هذا الهدوء ، وأنه ربما

يغلى فى داخله ، ولكنه يتجلد حتى لا يشمت فيه الاعداء ، وتأكد ظنى هذا ، عندما جاء الى ذات صباح ، وبعد أن شرب الشاى ، قال لى فى صوت خفيض للغاية :

ـ الحكاية بتاع الأفراح دى مسألة بينى وبينك ، ولما أكدت له أن السر فى الحفظ والصون ، قال وهو يستعد للانصراف :

ـ حاكم أنت عارف الجماعة المساجين كلامهم كتير .

فى هذه اللحظة تأكد لى أن المعلم قد أيقن من خديعته . وأن هذه الكلمات هى نصوص اتفاقية التسليم بدون قيد ولاشرط لهزيمته وبالفعل ، انزوى المعلم المسلكاتى بعد ذلك ولم يعد يغادر سريره الا نادرا ، وانقطعت جلسات الحشيش وهجر المستشفى مجموعة من الأصدقاء الذين كانوا معه ، ولم يبق من مجموعة الخدم إلا الطباخ وآخر كان يتولى ترتيب سرير المعلم وتنظيف دورة المياه ، قبل أن يتوجه اليها المعلم فى الصباح الباكر ، ولكنه لم يفارقه هدوؤه ، ولم تغادر الابتسامة شفتيه !

وراحت الأيام تزحف ، والموعد يقترب ولكن لا حس ولا خبر. وذات يوم فوجئت بالضباط الدسوقى فى المستشفى ، كان قد صدر قرار بنقله الى سجن المرج ، وجاء لتسليم عهدته فى سجن القناطر ، ثم انتهزها فرصة لتوديع اصدقائه من المسجونين ، وجلس يشيد بسجن المرج ، وكيف أن الله أكرمه بنقله الى هناك .

وبعد أن شرب الشاى معنا صافحنا جميعا ، ثم انصرف .

عندما ودعت المعلم المسلكاتى فى صباح اليوم التالى وأنا فى طريقى الى المحكمة ، شد على يدى بقوة ، وقال لى فى الحاح شديد :

ـ وحياة سيدنا النبى ما تنسانا بعد الافراج . دا عيش وملح يا افندى ، مش لعبة ، ولازم تزورنا ونزورك .

ووعدت المعلم المسلكاتى بزيارته فى السجن بعد أن يفرج عنى ، وكان قد بقى لى أسبوعان خلف الأسوار . . وضحك المعلم المسلكاتى ضحكته الودودة ، وقال وهو يمسك بيدى :

ـ طب اقرأ الفاتحة انك تبقى تزورنا .

وقرأت الفاتحة معه ، وودعته وانصرفت .

كان يوما مرهقا طويلا هد من كيانى ، وما أن وصلت الى السجن حتى صعدت بسرعة الى المستشفى ، واستلقيت على الفراش ولم يكن

بالمستشفى أحد على الاطلاق ، إلا مسجون عجوز نائم أو هكذا خيل الى . والصمت يطبق على العنبر ، وحتى الممرضون غادروا أماكنهم المعتادة وانصرفوا الى حيث لا يعلم أحد ، وعندما ناديت على أحدهم لكى يسعفنى بكوب ماء ، رد على المسجون العجوز الذى حسبته نائما ، وقال بصوت مسلوخ :

ـ مش هتلاقى أى حد هنا ، أصل عقبال عندك المعلم المسلكاتى طلع افراج .

وضاع صوته فى الضجيج الذى انبعث من الفناء ، فقد راحت الصفارات تدوى ايذانا بالتمام . كانت الساعة الخامسة لم تزل ، ولكن هكذا تقضى قواعد الضبط والربط فى السجون . وصوت الجاويش مرسى الشرس يتصاعد فى الجو ، يلعن أبوالمساجين الحقراء الذين يتحدون كل القوانين ، حتى فى السجون لا يريدون الخضوع للنظام .



الفصل الخامس

عبدالستار السياسى

سمعت عنه قبل أن أراه . كانت زنزانته تواجه زنزانتي ، وكانت مغلقة طول النهار ، بينما نزيلها يتمشى كالحيوان المحبوس فى فناء السجن ، جيئة وذهابا فى خطوات منتظمة ، ويده خلف ظهره ، بينما كانت ملابسه الرثة تظهر من لحم ظهره أكثر مما تخفى ، وحذاؤه البالى المثقوب ، يجعله يسرع الخطى متأففا عندما تكون الشمس فى كبد السماء . وكان ضخم الجثة مهوش شعر الرأس حاد الطبع ، وكانت تهمته سياسية ومدة سجنه ثلاث سنوات . وعندما وقع بصرى عليه أول مرة كان قد مضى عليه فى السجن عامان ، وكان يتمتع بسمعة سيئة لدى جميع النزلاء ! ولكثرة ما سمعته عنه من أفواه النزلاء تمنيت أن التقى به وأتحدث اليه . فقد خيل الى انه ربما لم يستطع أن يحفظ توازنه بين ما فى رأسه من مثاليات ، وما فى السجن من واقع . وربما تعرض لصدمة فى بداية سجنه ، أفقدته القدرة على التعامل مع الجو المحيط به ، وربما امتلأ قلبه حقدا على كل من حوله من خلق

الله ، وربما احترف تعذيب الآخرين ، احتجاجا على التعذيب الذى لقيه . وهو على أية حال شخصية يستحق الدراسة . . وتستحق الرثاء .

ورغم محاولاتى العديدة للتعرف اليه ، الا ان الفشل كان من نصيبى دائما . فكلما التقينا وجها لوجه فى الفناء ، كان يفتح فمه عن ضحكة عصبية لا تحمل أى معنى ، ثم يسرع الخطى مطأطىء الرأس ، وبصره على الارض ، كأنما هو ديك رومى هربان يبحث عن شيء يلتقطه ، وعندما أعيتنى الحيل صرفت النظر تماما عنه . فقد اقتنعت بأنه لابد أن يكون مجنونا ، أو على الأقل مسه خبل فى عقله . فقد كان أحيانا يصرخ لأتفه سبب ، وأحيانا لغير ما سبب .

وكان اذا صرخ سب المساجين و الحراس والادارة ، فاذا وقع بصره على الضابط ، اكتفى بسب المساجين فقط واليوم الأغبر الذى قذف به الى هذا المكان !

وبعد أسابيع طويلة من وصولى الى سجن القناطر لغط السجن كله بأن عبدالستار السياسى مريض بمرض خطير ، وانه طلب نقله الى مستشفى قصر العينى ، ولما لم تستجب الادارة الى طلبه ، هدد بالاضراب عن الطعام ، ولكن تهديده لم ير النور على الاطلاق !.

وذات مساء وكان الليل قد انتصف ، سمعت نحيبا مكتوما يتردد صداه عبر جدران السجن الغليظة الصماء . ولما أصخت السمع جيدا اكتشفت أن الصوت صادر من زنزانة عبدالستار . وشعرت بالحزن عليه ، فاذا كان السجن الانفرادى سيئا ، فليس أسوأ من الشعور بالوحدة فى سجن يموج بالسجناء . فطوال الفترة التى مرض فيها لم يدخل زنزانته احد الا الحارس الغليظ الذى كان يكن كراهية خاصة لعبدالستار ، مبعثها انه لا يملك فائضاً من السجاير . كما أن منظره لا يوحى بأنه مسجون سياسى ، ولابد أن هناك خطأ ما . وكانت تجربة الشاويش الحلوانى الطويلة فى السجون تؤكد ان المساجين السياسيين كلهم من طبقة الاثرياء . وزراء سابقون ، ورجال أحزاب من اصحاب الطين ، وضباط ومحامون وصحافيون وأطباء واحيانا طلبة ، ولكنهم جميعا يعيشون فى السجون فى بحبوحة من العيش ، ويغدقون بسخاء على الحراس والمساجين . نعم كله الا هذا العبد الستار .

فلم يكن معه ما يعطيه لاحد ، بل انه اقترض من كثيرين دون أن يرد لهم ما عليه من دون . وكان الشاويش الحلوانى كلما ذكر أحد اسم عبدالستار امامه ، قال وهو يقسم بأغلظ الايمان :

ـ طب تصدقوا بأيه ، وحياة سيدنا النبى دا ما هو سياسى ولا حاجة ، دا أكيد مخبر فى المباحث ومزقوق على حد هنا . حاكم الحكومة ساعات تعمل حاجات زى كده .

ولقد انتشرت هذ الاشاعة التى اطلقها الحلوانى ، حتى أصبحت شبه حقيقة يتداولها الجميع حتى الضابط الدسوقى كان يعتقد أنها حقيقة ، ولذلك يحتقره ويحذر منه ويخشاه فى الوقت نفسه ، ورغم عدم قيام أى دليل على صحة هذا الكلام الا انه زاد فى نفور الناس من عبدالستار ، حتى صار يعامل فى السجن معاملة حشرة مؤذية يتجنبها الجميع !.

وعندما فتحت عليه باب زنزانته فى ذلك الصباح ، كان ممددا على الارض فوق بطانية قذرة ممزقة صار لونها مثل لون الأرض ، ولم يكن فى الحجرة شيء على الاطلاق ، بدت عارية تماما الا من جردل البول وجردل مياه الشرب . ولم يكن ثمة فرق بين الجردلين وعندما شعر عبدالستار بحركة فتح الباب ، تماوت وزفر زفرة أنين خافتة ، فقد ظن أنه الحارس جاء لأمر ما . فلما القيت عليه تحية الصباح . هب مفزوعا كمن لدغته عقرب ، ورد على أسئلتى بإجابات مقتضبة .

ورغم لقائه البارد ، فقد جلست فى مواجهته على أرض الزنزانة ومددت له يدى بكوب شاى كنت قد اعددته له ، ولكنه رفض بشدة . ولما لمس مني اصرارا شديدا ، فقد قبله على مضض ، وراح يرتشف الشاى بصوت مسموع ، ثم قبل منى سيجارة شاكرا . أشعلها واخذ منها انفاسا عميقة متلاحقة ، وعندما ابديت له دهشتى من العزلة التى فرضها على نفسه اجابنى فى حسم :

ـ دول اصلهم ناس وسخة .. ثم واصل حديثه ، وكان قد انتهى من احتساء اخر رشفة فى كوب الشاى :

ـ انا بينى وبينك مندهش انت بتتكلم مع الناس دول ازاى ، ناس حراميه ومجرمين .

ولم يتصل النقاش بيننا بعد ذلك ، قطعه هو عندما أبدى رغبته فى النوم ، فتركته على امل لقاء اخر . وتعمدت ان اترك علبة السجائر مكانها

على الارض . فقد قدرت انه فى حاجة شديدة اليها . وتعددت اللقاءات بينى وبين عبد الستار بعد ذلك ، وكنت اكتشفت فى كل مرة شيئا جديدا فيه ! ولكنه لم يفتح قلبه قط . وان كانت ثورته الشديدة على المساجين لم تهدأ قط . وذات صباح طرق على الباب ، وبدون اى مقدمات ، طلب علبتى سجاير لأمر هام . وسحبت علبتين واعطيتهما له .

فأمسك بهما ووقف ينظر نحوى نظرات لم افهم معناها فى البداية ، وعندما استفسرت منه عما اذا كان نوع السجاير لا يعجبه ، لم يجب ، عض على شفتيه السفلى بقسوة ، ويكى فجأة ، ثم توقف عن البكاء فجأه ، ثم مد يده وصافحنى بحرارة ، وشكرنى بشدة ، ثم غادر الزنزانة لا يلوى على شىء ، وانفتحت مغاليق عبدالستار بعد هذا اللقاء ، وراح يتردد على كثيرا .

ثم تنازل اكثر وقبل الهدايا التى اقدمها له من مأكولات وسجاير ، وذات ظهرية وبعد وجبة دسمة طيبة ، اشعل عبد الستار سيجارة ، ونفث دخانها على شكل حلقات فى الفضاء ، وقال وقد اسند ظهره بحائط الزنزانة :

ـ أنا كنت فاكر ان السجن هيهدنى ، لكن أنا بعد تجربة السجن ، لازم أهد المجتمع كله .

وحكى لى عبدالستار عن نشأته فى احدى قرى محافظة البحيرة وأفاض فى شرح حالة عائلته الاقطاعية ، وكيف أن والده دلله حتى أفسده . وعندما التحق بكلية التجارة كان يملك سيارة ، ومرتبا ثابتا ، وشلة من الاصدقاء اللامعين ، ولكن هذه الحياة انهارت كلها بوفاة والده ، واستيلاء أعمامه على الثروة ، وحرمانه من نصيبه .

واستيقظ عبدالستار ذات صبح ليجد نفسه فى القاع ، وليكتشف حقائق جديدة فى الحياة ما كان يمكن اكتشافها بغير ذلك . وواصل عبدالستار تعليمه الجامعى فى عنت شديد ، وعندما تعرف على لطفى رأى الحياة بمنظار آخر يختلف . ولكنه كان المنظار الصحيح .

وكان لطفى رئيسا لتنظيم سياسى متطرف ، سرعان ما انضم اليه عبدالستار ، وكان هدف لطفى الأساسى ، تنظيم الفلاحين وتعبئة قواهم ، ثم الثورة على السلطة والاستيلاء عليها بعد ذلك . ووجد عبدالستار ضالته الكبرى فى لطفى وتنظيمه الثورى . فصار أنشط الأعضاء

وأشدهم التزاما . وعندما تخرج فى الجامعة ، واشتغل مأمور ضرائب فى دمنهور ، راح ينظم مجموعات من الفلاحين فى القرى القريبة من المدينة ، ثم ما لبث أن سقط فى يد المباحث ، ثم المحاكمة ثم السجن . ولكن هيهات أن يسكت السجن صوته ، سيعاود الكَرَّه من جديد ، وسيشعل الثورة حتما ، وسيقبض على زمام السلطة يوما ما .

وكان واضحا أن روايته التى قصها عن اسرته ، شىء اشبه بروايات الأفلام المصرية الهايفة . الأسرة الثرية والمجد العتيد ، ثم الفقر المدقع ، ثم الثورة !

وكان منظره وطريقة تعامله مع الآخرين توحى بأنه من أحط طبقات المجتمع وأكثرهم فقرا . وأنه لولا مجانية التعليم لما استطاع أن يقرأ ويكتب . ولكن مظهر البراءة الذى بدا على وجهى ، واصغائى الشديد لحديثه ، جعله يطمئن كثيرا ، فراح يحكى لى عن سفريات وهمية قام بها للخارج ، عندما كان يحيا فى بحبوحة العيش ، وعن غزوات غرامية قام بها لنساء شهيرات فى المجتمع ، وذات مرة ، وعقب اقتراضه عدة علب من السجاير كان فى حاجة شديدة اليها كما هى عادته ، همس فى أذنى بسر خطير .

كان السر الذى افضى به عبدالستار ، بعد أن أطمأن الى ان الضابط خارج العنبر وحارس الدور يتمدد فترة القيلولة ، وكل شىء على ما يرام . مزيجا من الجنون والاحلام والأمانى المستحيلة . وفى البداية اشعل عبدالستار لنفسه سيجارة وجذب منها أنفاسا عميقة طويلة ، وقال وهو يرمقنى بنظرة حادة من خلال سحابة الدخان التى غطت وجهه .

ـ أنا بعد سنة واحدة من خروجى من هنا حاكون استوليت على الحكم .

وعندما بدت البلاهة على وجهى ، وربما الاستهزاء أيضا ، ضرب جبهته براحة يده وقال وهو يعتدل فى جلسته :

ـ مش مصدقنى ، بكرة تسمع وانت هنا فى السجن . ولما لم أعلق على شىء ، راح يشرح تفاصيل الخطة الجهنمية التى ستحمله الى السلطة فى البلاد .

لقد اختار الفيوم ليبدأ منها حركته المقبلة . ولقد اختار الفيوم لعدة اعتبارات : فهى واحة كبيرة تحيط بها الصحراء من كل جانب ، ويفصلها

عن الوادى خط سكة حديد يسهل نسفه وبذلك تصبح مقطوعة عن الوادى تمام . أما الطريق البرى الذى يربطها بالقاهرة فهو ضيق لا يزيد عرضه عن ستة امتار ويمكن قطعه عن طريق عدد من القناصين لا يزيدون على أصابع اليد الواحدة . أما الطريق البرى الآخر الذى يربط الفيوم ببنى سويف ، فهو طرق رملى وغير ممهد ، ويمكن اصطياد قوات الحكومة التى ستقطع الطريق وتدميرها تماما . فاذا لجأت الحكومة الى ضرب الفيوم بالطائرات ، فسيخلق هذا العمل الوحشى من جانبها رد فعل لدى الجماهير فى العاصمة وستهب هذه الجماهير فى ثورة عارمة ضدها . كما أن الفيوم هى احط محافظات مصر مستوى للمعيشة ، وهذا الوضع يجعل منها قاعدة للثورة ، ويجعل جماهيرها الفقيرة مستعدة لخوض المعركة فى سبيل مكان أفضل تحت الشمس . وقال عبدالستار بعد أن انتهى من عرض الخطة :

- كاسترو بدأ فى كوبا بعشرين واحد ، وأنا عندى ألف واحد مستعدين .

وسألت عبدالستار سؤالا بدا ساذجا للغاية :

- طيب انت ساكن فى دمنهور ، هتروح الفيوم ازاى ؟ .

- أنا راجل موظف وهاطلب نقلى للفيوم .

ثم صمت طويلا قبل أن يقول :

- بس وحياة والدك الكلام دا بينى وبينك ، ودا سر لو طلع بره رقبتين تروح فيه . وبعد أن اشعل سيجارة اخرى اضاف :

وأنا مش خايف على رقبتى ، أنا مستعد أقطعها من دلوقتى علشان مصر ، لكن بينى وبينك أنا خايف على الثورة .

وخلال الايام التى تلت افضاءه بسره الخطير ، كان عبدالستار دائم التردد على مكاتب الادارة للاستفسار عما تم فى مسألة الافراج عن المسجونين السياسيين .

وكانت الاجابات التى يتلقاها متضاربة . كان بعضها يؤكد ان الافراج تقرر وقد يحدث فجأة ، والبعض الآخر يؤكد ان المسألة لا تزال مجرد اقتراح ولم يدخل بعد دائرة البحث والتنفيذ .

وذات صباح استدعى عبدالستار عن طريق الميكرفون للزيارة . وشاهد المساجين رجلا مسنا يرتدى جلبابا متسخا وطاقية متآكلة الحواف . وحذاء

أجرب بلا لون ، صافح عبدالستار فى غرفة المأمور ثم احتضنه . وجلس معه قرابة نصف الساعة ، وعندما انتهت الزيارة مد الرجل يده لعبدالستار وناوله اربع علب سجاير من صنف رخيص ، ثم خرج الرجل وهو يجفف دمعة انحدرت من عينه بطرف جلبابه الممزق الملوث بالشحوم والتراب .

وشهدت زنزانة عبدالستار بعد الزيارة حشدا كبيرا من المساجين سرعان ما تحول الى مظاهرة وارتفعت الاصوات وتوالت اللعنات على رأس عبدالستار وتصاعدت فى الجو كلمات نصاب ولص وغشاش . والسبب ان اصحاب الديون الذين انتظروا طويلا وصبروا على عبدالستار ، والذين وعدهم بتسديد ديونهم عندما يزوره أحد من أهله ، وها هى الزيارة قد تمت ، وعبدالستار لا يزال يماطل ويسوف ويدعى ان الذى زاره هو واحد من خدم والده معجب الى حد ما بثورية عبدالستار ، وان الخادم المسكين لم يستطع أن يقدم له الا أربع علب سجاير هى كل ما استطاع ان يدخره من قوت يومه . غير أن المأمور فضح عبدالستار فى اليوم التالى حين أكد ان الذى زار عبدالستار هو والده شخصيا ، وانه اطلع على بطاقته الشخصية ، وانه يعمل بقالا فى دمنهور ، وانه خلال الزيارة شكى لعبدالستار من وقف الحال وقلة المكاسب ، واعتذر عن عدم زيارته كل هذا الوقت الطويل لأن العين بصيرة واليد قصيرة كما يقولون .

وانزوى عبدالستار فى زنزانته من جديد ، وتحاشى حتى الخروج الى الفناء . ولكنه فجأة طرق باب زنزانتى ذات عصرية ، وجلس امامى يزفر بشدة ، وقال وهويتناول سيجارة قدمتها اليه :

ـ ما فيش فايدة ، الافراج طلع اشاعة ، عشان كده انا قررت أهرب .

ولما اعترضت على مشروعه الجديد لاستحالة الهرب من سجن القناطر ، قال مستخفا :

ـ دا مفيش أسهل من الهروب من هنا ، وعلى شرط . . فى عز النهار .

ولما استفسرت منه عن كيفية تدبير هروب مسجون سياسى وفى عز النهار ، قال وهو يهز رأسه هزات خفيفة كأنه درويش عجوز فى حلقة ذكر :

ـ عارف الحوش بتاع الرياضة .

ولما أجبته بالايجاب ، استطرد قائلا :

ـ فيه واد عسكرى واقف على السور فى آخر السور بيراقب الحوش كله

والسور طوله أربعة أمتار ، وفيه مصطبة تحت منه ارتفاعها مترين ونص . والعسكرى طول النهار مشغول بالكلام مع المساجين عشان يهرب لهم شاى من السور ويشحت سجاير منهم . ساعة التهريبة هاطلع أنا المصطبة ، وأنط ع السور من ورا ، وهالبس بلوفر ملكى فوق بنطلون السجن وهاقفز انا فى الشارع وهامشى على مهلى وكأنى طالب بيتفسح فى القناطر الخيرية . وعبثا حاولت اقناعه بتأجيل مشروعه ، فربما كان هناك تفكير بالفعل فى الافراج عن المسجونين السياسيين ، وحادث من هذا النوع سيجعل موضوع الافراج ينام على الرف عدة سنين .

ولكن عبدالستار كان قد قرر وانتهى الأمر ، وقال وهو يستعد للانصراف :

ـ الأسبوع ده حيكون كل شىء انتهى ، بس . .

ولما لم يجد منى تشجيعا على مواصلة الحديث أكمل قائلا :

ـ بس انا محتاج مبلغ نقدى ، حسبة عشرة جنيه لو تدبرهم لى يبقى كتر خيرك .

ولما ابديت له اسفى الشديد لعدم توافر مثل هذا المبلغ معى ، قال على الفور :

ـ على العموم ممكن السجاير تسد ، لو تدبر لى ثلاثين علبة سجاير تبقى المشكلة انحلت .

وعندما أبديت له استعدادى بتدبير عشر علب سجاير فقط لا غير . . قال ممتنا :

ـ مش بطال ، بس وحياة والدك تحضرهم بكرة .

وفى اليوم التالى كان يقتحم على زنزانتى . وعندما ناولته العلب العشرة ، فحصها بدقة ، وقال كأنما يخاطب نفسه :

ـ على العموم هادبر الباقى أنا ، عن اذنك . ولمحت بعد قليل عددا من اصحاب الديون يتردد على زنزانة عبدالستار ، ويغيبون داخل الزنزانة قليلا ، ثم يخرجون ومعهم سجاير فرط يحصونها فى حرص ، ويضعونها فى جيوبهم قبل أن يمضوا . ومر اسبوع واسابيع كثيرة وعبدالستار مكانه ، ولم يبرح السجن ولم يقفز من فوق السور ولم افاتحه فى هذا الموضوع مرة أخرى ، فقد حمدت الله لأن عبدالستار كف بعد ذلك عن اقتراض سجائر منى .

ولكنه ذات صباح هجم على فى فناء الرياضة وانا اشترك فى مباراة لكرة القدم . وقال بلهفة :

ـ ألاقى معاك سيجارة .

ولما اعتذرت له عن عدم وجود سجائر معى تلك اللحظة ، قال :

ـ طيب لما تطلع فوق ، ثم اشار الى حيث يقف العسكرى فوق السور ، وغمز لى بعينه ، وقال بصوت هام :

ـ المكان أهه ، لو عاوز أهرب دلوقت أقدر ، بس يا خسارة .

ويبدو أن عبدالستار كان يراقبنى اثناء مزاولتى اللعب ، فما أن صعدت الى زنزانتى حتى فوجئت به خلفى . وقال وهو يجلس حيث اعتاد الجلوس :

ـ شفت بقى المكان ، سهل ازاى ؟؟ ! ولما لم اعلق بشىء فقد قال مستطردا :

ـ بس الله يخرب بيوتهم . . الجماعة اللى بره .

ولما استفسرت منه عمن يكونون هؤلاء الجماعة أجاب بسرعة :

ـ أعضاء الحزب ، بعتلهم يحضروا لى عربية يقفوا بيها عند الكوبرى ، عشان بسرعة اختفى من القناطر ، لكن لحد دلوقت لا حس ولا خبر .

رحت التمس الاعذار « الجماعة » فربما لا يوجد لديهم سيارة ، فى الوقت الحاضر ، أو ربما الرقابة المفروضة عليهم لا تتيح لهم التحرك فى حرية .

وقاطعنى عبدالستار قائلا فى حزم :

ـ على العموم ، أنا قررت انتظر لحد يوم الخميس واذا مالقتيش رد . ها أهرب ، واللى يحصل يحصل .

ثم طلب منى علبة سجاير واحدة ، ولم ينس ان يقول قبل ان يغادر المكان . .

ـ على العموم كل شىء بحسابه ، وحقك محفوظ .

ومر يوم الخميس ، ولم يتلق عبدالستار ردا من الخارج ، ولم يهرب من السجن . وجاء يوم الجمعة ولم يخرج من الزنزانة ، وفى المساء عندما أغلق السجن أبوابه ، صعد مسجون من اللصوص على نافذة زنزانته وصاح بصوت كالرعد :

ـ يا عبدالستار يا سياسى اذا ما دفعتش اللى عليك بكره هافتح كرشك بنصله ، أنا باقولك أهه والسجن كله شاهد ، ولم يرد عبدالستار على

المسجون ، حتى نور زنزانته أطفأه ويبدو أنه اثر النوم فى هذه الساعة المبكرة من الليل .

وفى الصباح استيقظت عند الضحى . . أيقظنى الشاويش عبدالقادر وقال وهو يهزنى بعنف :

ـ انت لسه نايم . دا انت فاتك نص عمرك .

ولما استفسرت منه عما يعنيه ، قال وهو يضحك .

ـ عبدالستار السياسى .. ماله ؟ .

ـ السجن كان هيولع النهاردة من تحت راسه . وراح الشاويش عبدالقادر يحكى لى كيف فوجىء المساجين بأن عبدالستار مطلوب للترحيل الى سجن دمنهور تمهيدا للافراج عنه من هناك وكيف اكتشف اصحاب الديون هذه الحقيقة فى آخر لحظة ، فهجموا على مكتب المأمور يريدون الفتك بعبدالستار . واعتذر عبدالستار لهم عن عدم استطاعته دفع ديونهم لانه فوجىء بقرار الترحيل ، ولكن مسجونا قديما قضى فى السجن خمسة عشر عاما اقسم أن يقتل عبدالستار ولو كان الثمن أن يفقد حياته هو الآخر .

واضطر المأمور الى ان يدفع للمسجون القديم من جيبه ما على عبدالستار من ديون ، ثم أعلن حالة الطوارىء فى السجن . واستدعى فرقة المطاردة . وأغلق جميع الزنازين لكى يتمكن من ترحيل عبدالستار الى دمنهور .

وخيل الى وأنا استمع الى رواية الشاويش عبدالقادر انه ربما شعرت الادارة برغبة عبدالستار فى الهروب فآثرت أن تنقله الى سجن أكثر احكاما . وربما تم الامر مصادفة ، ولكنها ستكون فرصة لعبدالستار ليهرب اثناء ترحيله الى سجن دمنهور . خصوصا عندما علمت من الشاويش ان الحراسة لم تكن مشددة وان جنديا واحدا هو الذى اصطحبه معه الى سجنه الجديد .

ولكن كل أوهامى تبددت حين علمت من المأمور أن الترحيل تم بناء على رغبة عبدالستار نفسه . وقد أرسل الى المصلحة طلبا بترحيله منذ ثلاثة أسابيع . ولما سألت عن سر هذا الطلب ما دام الافراج عنه سيتم بعد اسابيع ، رد المأمور بأنه لجأ الى هذه الحيلة ليهرب من الديون ، لأنه لو مكث فى سجن القناطر حتى يوم الافراج عنه ، فحتما سيقتله مسجون من

اصحاب الديون اذا لم يدفع ما عليه قبل يوم الافراج بيوم .
ومضت أيام كان عبدالستار هو حديث السجن ، ثم انشغل السجن بنفسه ونسى عبدالستار . الا انا . . فقد رحت ارقب يوم الافراج عنه ، ورحت اتابع الصحف بعد ذلك ابحث بين سطورها عن حوادث اخلال بالامن وقعت فى محافظة الفيوم .
ومضت شهور طويلة ، وحل موعد الافراج عنى ، ونسيت عبدالستار تماما فى غمرة الاحداث التى استقبلتنى خارج الأسوار . ومرت سنوات على لقائى مع عبدالستار قبل ترحيله الى دمنهور ، ومنذ أيام رأيت صورته فى احدى الجرائد ، وسط حشد كبير من المواطنين ، وأين ؟ فى مدينة الفيوم . وفى مبنى الاتحاد الاشتراكى ، والمناسبة احتفال ضخم اقامه انصار تنظيم الوسط تأييدا لخطوات الحكومة فى سبيل حل مشاكل الفلاحين .
كان عبدالستار هو الخطيب ، وكانت قسمات وجهه تحمل علامات التأييد المطلق والحماس الشديد !.



الفصل السادس

عبدالحفيظ الاشتراكى

كان محمود عبدالحفيظ ، أو الحاج محمود كما كان يحلو له أن يطلق على نفسه ، أحد الذين أدينوا أمام محكمة الثورة بتهمة مقاومة حركة ١٥ مايو .

وكان الحاج محمود شابا لم يتجاوز الخامسة والثلاثين . قصير القامة متين البنيان ، ويعمل موظفا بالحكومة ، ويملك بيتا فى المطرية ، ويدير محلا للبقالة كان يمتلكه أبوه قبل أن ينتقل الى رحمة الله . وكان الحاج محمود رغم موقفه الشائن من اخوته البنات بعد وفاة والده ، واستئثاره بتركة الوالد بدعوى الحفاظ عليها من التبديد . رغم موقفه هذا فقد كان شديد التدين شديد الاستقامة ، من المكتب الى البيت ، ومن البيت الى الدكان ،

ورغم حرصه الشديد الذى يبلغ حد البخل ، الا انه كان يحلو له بين الحين والحين استقبال بعض الأصدقاء ، فيجلسون أمام الدكان فى أمسيات الصيف الجميلة ، وكان الحاج محمود يقدم لهم فى تلك السهرات

الشاى وأحيانا الحلوى والسجاير عن طيب خاطر . ورغم انه كان نصف متعلم ، الا انه كان راضيا عن نفسه تمام الرضا ، فهو يقرأ الجرائد اليومية ، ويستطيع أن يقرأ ما بين السطور . وكان له رأى فى السياسة يبديه دائما بين الحين والحين ، وان رأيه لا يتعدى نطاق انتقاد سلوك لمأمور الشرطة أو مهندس الكهرباء أو أمين الاتحاد الاشتراكى فى الحى . ولذلك عندما تولى مسئولية الاتحاد الاشتراكى فى الزيتون أحد الرجال الاذكياء ، سارع بضم الحاج محمود الى عضوية الاتحاد الاشتراكى ، أولا ليتقى شره ، وثانيا ليتسنى له استخدام سهرات الدكان ضد من شاء من خصومه .

وطار الحاج محمود فرحا لهذاالشرف الرفيع ، فقد أصبح واحدا من اولى الرأى ، واتسعت حلقات المساء التى يعقدها امام الدكان ، وكان سعيدا رغم زيادة التكاليف والاعباء .

والحق ان الحاج محمود لم يكف عن نقد مأمور الشرطة ومهندس الكهرباء ورجال البلدية . ولم يبخل بمساعدة على من يطلبها بشرط الا تكلفه نقودا . لأنه رغم مكاسبه كان دائما فى ضائقة مالية ، بسبب انشغاله فى بناء الدور الثالث فوق البيت الذى ورثه عن أبيه ، وحتى بعد أن انتهى من بناء الدور الثالث ، فقد شرع فى بناء الدور الرابع ، وكانت زوجته المدبرة التى تكبره عمرا . وتفوقه ذكاء ، هى خير معين له فى تنظيم شئونه بحيث شعر الحاج محمود انه فعلا محظوظ ، فقد فاز بالزوجة الطيبة والعيش الطيب والمركز المرموق .

وعندما وقعت كارثة ١٩٦٧ ، فقد الحاج محمود صوابه وفقد توازنه ايضا . وعندما رأى علم اسرائيل يرفرف على شاطىء القناة بكى من شدة القهر ، وانزوى بعد ذلك فى حدود بيته ودكانه ومكتبه بالوزارة . وكف عن التردد على مكتب الاتحاد الاشتراكى . وحتى السهرات التى كان يعقدها أمام الدكان فى أمسيات الصيف الجميلة عزف عنها . وبدا للناس فى الحى انه تفرغ لشئونه الخاصة ولم يعد له ادنى صلة بما يدور فى البلد من احداث . وربما استبد الحزن بهؤلاء الذين كانوا يستفيدون من نشاط الحاج محمود السياسى ، ولكن الفرحة استبدت أكثر بزوجته التى رأت فى مسلكه الجديد عونا لها على التوفير استعداد لبناء الدورالخامس . فلم تكن الزوجة تؤمن بجدوى العمل السياسى ، بل كانت ترى فيه وفى التدخين ضررا

بالصحة وبالمال ، وكانت عبّارة مفيش فايدة هى شعارها المفضل ، وكانت ترردده دائما كلما رأت الحاج محمود منغمسا فى مناقشة حادة حول القضايا الهامة فى البلاد !

ولكن فرحة الزوجة لم تدم طويلا . فسرعان ما دب النشاط من جديد فى الاتحاد الاشتراكى ، وجاء أمين جديد فى الحى أكثر جدية من الأمين السابق ، وبحث فى دفاتره القديمة عن الانصار الذين ولوا ، وقرر أن يلم الشمل من جديد ، وذهب الامين بنفسه الى دكان الحاج محمود وسهر معه حتى منتصف الليل يحاول اقناعه بالعودة للعمل السياسى ولكن الحاج محمود اصر على موقفه ، وأعلن رأيه بصراحة للأمين الجديد ، وانصرف الامين دون أن يقطع الأمل فى عودة الحاج محمود ! ولكن الزوجة انذرته بأنه ستهجر البيت اذا عاد الى خوتة الدماغ من جديد .

وقام الحاج محمود تلك الليلة بعد أن وعد زوجته وعدا قاطعا بعدم العودة الى نشاطه السابق ، لكن زيارات الامين تكررت بعد ذلك وكان يخوض احيانا فى السياسة مع الحاج محمود واحيانا يكتفى بكلام عام حول الاحوال السائدة فى البلاد .

والحق ان الحاج محمود كان سعيدا بلقاء الأمين ، وكان اكثر سعادة بجلوس الامين امام باب الدكان . وذات مساء وبعد أن انتهت السهرة همس الأمين فى اذن الحاج محمود بأن الاختيار قد وقع عليه ليكون عضوا فى التنظيم الطليعى . حاول الحاج محمود أن يعتذر ، ولكن الأمين قاطعه فى حزم :

ـ أعتذر بقى لعبد الناصر ، أنا ماليش دعوة بالحكاية دى .

ولم يغمض للحاج محمود جفن فى تلك الليلة . فأين هو من عبدالناصر ؟ وكيف عرفه عبدالناصر ؟ ولماذا اختاره هو بالذات . وعندما سألته زوجته عن سر أرقه وسهاده ، اعتذر لها بأنه يعانى من صداع حاد ، ولم يشأ أن يكشف لها عن السر !

وبعد أيام اعتذر الحاج محمود لزوجته فى الذهاب للعزاء فى وفاة والد احد الاصدقاء . وذهب الى اول اجتماع لأعضاء التنظيم فى حى الزيتون . وكاد يغمى على الحاج محمود من هول المفاجأة ، فقد رأى لأول مرة المحافظ بلحمه ودمه ، وأكثر من هذا رأى أحد الوزراء المرموقين ، ثم عددا من كبار المسئولون . اذن فالامر لا هزل فيه . وهذا التنظيم يختلف عن الاتحاد الاشتراكى .

وشعر الحاج براحة تغمره وسرور يسرى فى دمه . . لقد اصبح الان رجلا مسئولا وسيثبت للجميع انه أهل لها وأنه اجدر الجميع بحملها وأقدرهم على حلها ! وبكت زوجة الحاج محمود عندما جلست معه بعد عودته تستمع اليه عما حدث بالتفصيل .

ورغم بكائها فقد اقنعها ان ما حدث فيه خير له وخير للبلاد . وهدأ روعها قليلا عندما ألمح لها أن فى استطاعته الآن مقابلة المحافظ بسهولة ، وان هذا سيفيده حتما فى الحصول على مواد التموين !

ومضت الحياة بالحاج محمود بعد ذلك عادية رتيبة الا من اجماع اسبوعى يعقده فى التنظيم ، صحيح أن الاجتماع اقتصر بعد ذلك على بعض المواطنين وامين القسم.وصحيح ايضا أن المحافظ والوزير وبقية المسئولين اختفوا بعد الاجتماع الأول . ولكن الحاج محمود كان مطمئنا الى ان محاضر الاجتماعات ترفع الى المستوى الاعلى حتى تصل فى النهاية الى الرئيس نفسه . ولذلك لم يبخل برأى ، ولم يكف عن أى نشاط عهد به اليه !.

وروع الحاج محمود بوفاة الرئيس المفاجئة ، وفكر عندئذ فى الانسحاب من العمل السياسى والالتفات الى الوظيفة والدكان ، ولكن الامين المدرب اقنعه بأنه اذا كان الرئيس قد مات فإن التنظيم حى لا يموت ، وان على التنظيم الآن أن يحكم ويسد الفراغ الذى نشأ بوفاة القائد .

واقتنع الحاج محمود بوجهة نظر الامين ، وراح يشارك من جديد فى الاجتماعات ويدلى بالآراء ويسجل رأيه فى المحاضر . وعندما بدأ الصراع فى قمة السلطة لم يشعر الحاج محمود فى أى لحظة أن ثمة صراعا يدور فى القمة . فقد حجب عنه الجميع انباء الصراع . ولذلك عندما كلفه الامين بقيادة مظاهرة بعد صلاة الجمعة تطالب بالوحدة الوطنيه وعودة الوزراء المستقيلين ، لم يتردد لحظة ، وعندما ألقى البوليس القبض عليه طلب السماح له بالاتصال تليفونيا بالامين الذى كلفه بالمظاهرة ، لكنه فوجىء بالامين نفسه فى الزنزانة نفسها التى انحشر فيها بعد قليل .

تمالك الحاج محمود نفسه وعكف على الصلاة وترديد الادعية . وحرص على أن يؤدى الفريضة فى مواقيت الصلاة .

وآثر الوحدة فابتعد عن الجميع ، ولم يشغل باله التحقيق وما يجرى فيه . فهو لم يفعل شيئا سوى انه حاول قيادة مظاهرة فاشلة لم تتم . وهو حتى عندما فكر فى قيادتها كان يعتقد لحظتها أنه يفعل هذا فى سبيل

المصلحة العامة . ولم يكن يعلم ـ حقيقة ـ ان هناك صراعا ما .
ولم يكن منحازا لفريق ضد فريق فهو انحاز لمصر ووقف الى جانب النظام ككل . ولا تربطه بأحد فى السلطة علاقة على أى نحو ! ولكن الذى شغله بالفعل ، هو كيف يصبح دخول تنظيم الحكومة عملا ضد الحكومة ؟ وكيف يتحول رجل النظام الى مناهض للنظام الذى هو جزء منه .

ان التهمة التى وجهها المحقق للحاج محمود هى محاولة قلب نظام الحكم . والحاج محمود كان يؤمن بأنه هو نفسه نظام الحكم . وظل هذا الايمان راسخا فى قلبه حتى بعد أن دخل الزنزانة وأغلقها عليه الحارس بالمفتاح . فقد ظن أن فى الامر خطأ ما ، وان احدهم سيفتح الزنزانة بعد قليل ليعتذر له . والذى غاظه اكثر ان كل الذين كانوا معه لا يزالون فى السلطة ، ولا أحد ضاع الا هو والأمين ، بل ان الامين الجديد الذى كان زميلا له فى التنظيم ، وربما كان اكثر منه حماسا للمظاهرة ، خطب فى الحى منددا بالخونة واعداء الوطن ، وكان يقصد الحاج محمود والآخرين .

كيف حدث هذا وما الذى جرى على وجه التحديد ؟ ولم يجد الحاج محمود أجوبة على الاسئلة التى ازدحم بها رأسه . فدفن همه فى العبادة وذكر الله . فلم يعد احد قادرا على تخليصه من ورطته الا سبحانه ! وانتهت المحاكمة ودخل الحاج السجن ، وبدأ يتأقلم مع حياته الجديدة ، ويرضى بها على انها قضاء الله وقدره . ومن يدرى ؟ عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . ولابد أن عينا شريرة حسودة اصابته فى الصميم .

وما دامت الصحة جيدة والدكان والعمارة فى أحسن حال ، فكل شىء على ما يرام ! وكان من عادة الحاج كلما استيقظ فى الصباح الباكر ، تشعلق على باب الزنزانة ثم أذن للصلاة ، ثم يردد كلمة يا رب أكثر من مرة ، ثم يطلق صيحة رهيبة بعبارة لايغيرها على الاطلاق « فرجه قريب »! .

وذات صباح ، والحاج فى نزهته المعتادة فى فناء السجن ، فوجىء بالمأمور يستدعيه الى مكتبه لأمر هام ، وعندما مثل الحاج بين يدى المأمور حدق المأمور فيه طويلا ، ثم سأله سؤالا جعل شعر الحاج محمود يشتعل شيبا ، ومفاصل عظامه تتفكك كأنما اصابها زلزال ، ولم يستطع الحاج محمود أن ينطق بالجواب ، هل ينفى ؟ هل يعترف ؟ هل يرفض الاجابة على السؤال ؟ .

وأخرجه من حيرته ، صوت البيه المأمور يصرخ فيه مرة أخرى بالسؤال :

ـ أنت اللى كل يوم تقول « فرجه قريب »؟!.

وامتقع وجه الحاج محمود عند سماعه لسؤال المأمور ، فمن الذى أبلغه بهذا العمل الذى يعتبر سلوكا خاصا للحاج ؟ ثم ما هى عواقب مثل هذا العمل ؟ وهل الابتهال الى الله جريمة ؟ وعندما أعاد المأمور سؤاله ، سارع الحاج بالرد ، فقد كانت لهجة المأمور جافة وجادة .

ـ أنا باذكر الله يا بيه .

وقال المأمور وهو يعنف الحاج :.

ـ ابقى أذكر الله فى سرك .

انزوى الحاج محمود بعد ذلك فى زنزانته ، يراقب أحوال السجن والمساجين . وتركزت كل غرائز التاجر فى الحاج ، فاكتشف ان التجارة فى السجن أربح منها فى الخارج . فهنا لا ايجار ولا ضرائب ولا مصاريف مياه وكهرباء ، صندوق السجاير الذى يباع بربع جنيه فى الخارج يباع فى السجن بضعف ثمنه . السجاير هى عملة السجن وهى اربح تجارة . وللحاج محمود قيود فى مسألة السجاير ، وهو فى البداية امتنع عن شراء أى سجاير من الكانتين أو استلام أى سجاير من الخارج ، والسبب انه لا يدخن . ولكن ما أعظمها الآن من فرصة ، اذا اغتنمها الحاج فاز من السجن بغنيمة لا يستطيع الحصول عليها فى الخارج !

ولم يضع الحاج محمود وقتا ، أرسل الى زوجته خطابا يوصيها بأن ترسل له كميات كبيرة من السجاير ، وظنت المرأة الطيبة المدبرة أن فى الأمر خطأ ما . ولذلك لم تحضر معها أى سجاير عندما جاءت لزيارته .

ولكن عندما شرح لها الحاج محمود تفاصيل مشروعه الجديد . رحبت على الفور ، وسرعان ما تكدست زنزانته بصناديق سجاير من كل الأنواع ، وجذب الزحام الشديد على زنزانة الحاج نظر الشاويش . ولكن الحاج المدرب استطاع أن يملأ فم الشاويش وان يسكته أيضا .

اثار الحاج محمود حسد التجار الآخرين فى السجن وكان عليه أن يدخل سلسلة معارك طويلة ضد الذين احتكروا التجارة فى السجن منذ أمد طويل ، ودخل الحاج محمود معركة وأخرى ، ولكنه اكتشف ان الطريق طويل ، وانه لا محالة هالك فى النهاية ، فآثر الانسحاب من المنافسة

الدامية ، ولكن الى عمل آخر لا يستطيع أحد أن ينافسه فيه . فقد كان السجن يستقبل كل يوم سبت عددا من المساجين كلهم شبان ، كلهم جاءوا الى السجن لارتكابهم جريمة واحدة . هى الهروب من الجندية ، ولأنهم منقولون من السجن الحربى ، فقد وصلوا الى سجن القناطر فى غاية الاعياء ، وليس مع احد منهم سجاير ولا نقود ، وكانت مهمة الحاج محمود عندئذ هى مد يده الكريمة الى هؤلاء الضائعين ، بالسجاير وعلب الأطعمة المحفوظة على ان يدفع هؤلاء ما عليهم من نقود بعد ذلك . عملية فيها مخاطرة ، ولكن الحاج قام بها عن طيب خاطر !

استأجر الحاج مسجونا من عتاة المجرمين ، له سجل حافل فى الجريمة ، وسوابق فى فقأ أعين الحراس ، الأمر الذى جعل ادارة السجن تغمض عينها عن نشاطه المريب داخل الأسوار . وكان سعيد - هذا اسمه - شابا فى مقتبل العمر . قصير القامة متين البنيان ، قويا كالثور ، وكان مسلحا بخنجر له نصل حاد يخفيه فى طيات ملابسه ، ورغم ان الحراس الذين تولوا تفتيشه أكثر من ألف مرة ، كانوا يعرفون موضع الخنجر فى ملابسه ، إلا ان احدا منهم لم يجرؤ على ضبطه فى يوم من الأيام .

وكان سعيد ينتقل طول النهار تحت سمع وبصر الادارة بين العنابر قاطعا فناء السجن ، ليوزع السجاير وعلب الأطعمة المحفوظة فى زنزانة الحاج محمود الى مختلف الزنازين . ثم يعود آخر الأسبوع فيجمع الحساب ممن تلقوا نقودا من ذويهم ، وكان يقنع بربع حصة له عن عمله مع الحاج ، تاركا للحاج محمود الباقى نظير رأس المال . وتعرضه للافلاس تماما اذا تم ترحيل هؤلاء المساجين فجأة يوما ما !.

واطمأن الحاج محمود الى العملية الجديدة . فكل خطوة فيها تسير حسب الخطة الموضوعة والأرباح فاحشة ، والمستقبل زاهر ، وفترة السجن لن تضيع هدرا ، ورب العباد الكريم ، يقطع هنا ليوصل هناك . وتسلح الحاج محمود بعدة دفاتر لينظم حساباته . ولأن الورق والقلم من الممنوعات بالنسبة للمسجون السياسى ، فقد جعلها فى عهدة شريكه سعيد ، وكان سعيد يحملها اليه فى الصباح ، ويقضى الحاج محمود وقتا طويلا فى اثبات الديون ، وشطب المتحصلات ، واسقاط الديون الميتة التى تم الافراج عن اصحابها ! وتم ترحيلهم من السجن .

واتسعت أعمال الحاج محمود ، فصار يشترى من السجن بضائع يسلمها .

لزوجته لتبيعها فى الخارج . وكانت هذه أول سابقة فى تاريخ السجون المصرية ، ولكن سيظل الفضل فى اكتشافها للحاج محمود عبدالحفيظ .

وأصل الحكاية أن المسجونين يتلقون من ذويهم فى الخارج طرودا ، وهذه الطرود تحتوى على ملابس شتوية . وأطعمة ، وصابون ، ومعجون اسنان . ولما كان المسجون ليس فى حاجة الى هذه الأشياء بقدر حاجته الى سجائر كثيرة ، فإن أغلبهم يعرضون ما تلقوه للبيع مقابل سجائر يدخنونها ويستعملونها فى رشوة الحراس وقضاء مآربهم الأخرى .

وانتهز الحاج محمود الفرصة ، وراح يشترى كل شيء ، ملابس ، معجون أسنان ، أحذية جديدة ، صابون معطر . وذات مرة تلقى مسجون من بلاد المغرب عدة صناديق سجاير من نوع فرنسى غالى الثمن ولكنه ليس ذائعا فى مصر ، وأراد الرجل المغربى ان يبادل السجاير الفرنسية بسجاير مصرية ، وتقدم الحاج محمود وحل المشكلة . ولكن السجاير الفرنسية لم تلق رواجا فى دكان الحاج فأراد الغاء الصفقة ، ولكن الرجل المغربى اعتذر ، وكانت خناقة حامية ، وصلت الى مكتب المأمور . ومن خلال التحقيق السريع ، الذى أجراه المأمور مع الحاج والرجل المغربى ، استطاع ان يكتشف بعض جوانب القضية الغريبة الغامضة . وربما وصل الى استنتاج لحقيقة الدور الذى يقوم به الحاج فى السجن !

ولكن هذا الحادث العابر لم يجعل الحاج محمود يتوقف عن العمل ، بل ظل يزاول نشاطه كالعادة بمنتهى الهمة والنشاط ، ولكن لان الرياح لا تأتى دائما بما تشتهى السفن ، فقد بدأت المتاعب تلوح فى الأفق فقد مضت عدة أسابيع والحاج محمود يثبت فى دفاتره ديونا ، دون أن يكون هناك أية مدفوعات . وكان سعيد يسوق فى كل مرة حجحا لعدم التحصيل ، والحاج محمود ساكت لا يستطيع حراكا . فهو أولا لايعرف أصحاب الديون ، فالعلاقة معهم مقصورة على سعيد وحده . وهو لا يستطيع أن يكذب سعيد أو يتهمه بالتحصيل ، لأن عواقب عمل مثل هذا لا يعلم بها إلا الله !

وفكر الحاج محمود ان يتوقف قليلا عن العمل ، خصوصا إن موعد الافراج عنه قد أصبح على الأبواب . وفاتح سعيد فى الأمر ، ولكن سعيد اعترض بشدة ، فكيف يتوقف والارباح تنهمر على رأسيهما كالمطر . واقترح سعيد اقتراحا جهنميا لمعت له عينا الحاج محمود . لماذا لا يواصل

الحاج تجارته فى السجن وهو فى الخارج . ان سعيد مقطوع من شجرة ، فلا أحد يزوره ولا احد يسأل عنه حتى بخطاب . ويستطيع الحاج ان يزوره مرتين كل شهر ، وأن يحمل له البضاعة وسعيد يمارس عمله ويسلم الارباح للحاج . كما أن من حق الحاج أن يرسل طرودا لسعيد دون أن يتحمل مشقة المجىء للزيارة . انها عملية سهلة ومربحة وستحقق للحاج دخلا يعوضه عن فقد الوظيفة وعن وقف الحال فى الدكان !.

وسرح الحاج تلك الليلة فى مشروع سعيد ولكن الخوف الوحيد ان يطمع سعيد فى أرباح الحاج محمود فيلطشها كلها ويرفض الدفع ، ولكن تجربة الحاج محمود مع سعيد تثبت العكس . فهو فى غاية الأمانة وظل يدفع ما عليه بانتظام ، صحيح ان هناك متأخرات لعدة أسابيع ولكن الذنب ليس ذنبه ، بل ذنب المساجين المفلسين الذين يرفضون الدفع .

على العموم هو مشروع جيد فقط لو اكتشف الحاج طريقة تضمن له حقوقه عند سعيد . هكذا همس الحاج محمود لنفسه وهو يتهيأ لصلاة العشاء فى زنزانته التى حرص على اطفاء النور داخلها حتى لا يزعجه حراس الليل بطلباتهم المتكررة .

ونام الحاج محمود فى تلك الليلة نوما هادئا مباركا ، وعندما استيقظ على ضجة المساجين ، كان الوقت ضحى ، والشمس تتسلق الأفق . والجو رائع ، ورائحة زهر البرتقال تفوح فى جو القناطر ، وتوضأ الحاج محمود وخطف ركعتين سريعتين ، وخرج ليشترى بعض الوقود ، فقد نفدت الكمية التى كانت لديه ، وكان محمود يلجأ فى مثل هذه الأعمال لسعيد . وعندما عرج الحاج على زنزانة سعيد اكتشف انها مغلقة ، فادرك أن سعيد ربما فى جولته المعتادة لجمع النقود المستحقة على المساجين . ولذلك راح يفتش عليه هنا وهناك دون أن يعثر له على اثر . وفجأة رأى احد أصدقاء سعيد يقطع الفناء فناداه الحاج وسأله عن سعيد ، وقال الرجل وهو يحث الخطى فى طريق الى حيث يريد :

ـ سعيد رحلوه النهاردة الصبح ، راح سجن قنا . ونزل الخبر على الحاج محمود كالصاعقة .

وانزوى الحاج محمود بعد هذا الحادث يلعق جراحه فى اكتئاب شديد . لقد تحمل المحاكمة والسجن وضياع المستقبل ولكنه لم يستطع أن يتحمل ضياع تجارته فى السجن ! وماذا يستطيع أن يقول لزوجته وكيف يبرر ما حدث له ؟.

ولكن ليس الذنب فى الواقع ذنب الولد سعيد ، السياسية هى السبب ! ملعون أبو السياسة وملعون أبو الذى أغراه بالعمل فيها . ما كان أغنى الحاج محمود عن العمل بالسياسة ، فهو موظف حكومة وصاحب دكان ومن ذوى الأملاك ، لو عاش وحده ولنفسه لكانت أحواله عال العال . وضربت موجة من الأسى نفس الحاج محمود عندما تذكر أيامه الخوالى . صحيح كان صاحب سلطة . وكان عسكرى المأمور يضرب له تعظيم سلام اذا رآه .

فلتذهب كلها الى الجحيم ، وعليه أن يواجه حاضره الأغبر ومصيره المجهول ، وأن يحاول تعويض خسارته الباهظة قبل أن تمر الايام ، ويكون عليه بعد ذلك ان يواجه اياما عصيبة بعد الافراج . وفكر الحاج فى معاودة نشاطه داخل السجن ولكن بمساعدة آخر أكثر أمانة من سعيد ، ولكن من أين يجد انسانا صاحب امانة فى سجن المفروض أن كل من فيه فقدو هذه الصفة قبل الوصول اليه !.

ولكن لماذا لا يقوم الحاج محمود بالعمل بنفسه ، ما حك جلدك مثل ظفرك ! على الأقل ستكون الارباح كلها فى جيبه ، وهو يستطيع عندئذ ان يتساهل قليلا فى الأسعار ، ولو فعل ذلك فسيجنى مع الربح ، الشكر والذكر الحسن ! ولماذا لا يستعين الحاج بواحد من حراس السجن ، وسيتوافر عندئذ الربح مع الحماية . فكرة جهنمية لم تخطر على بال احد من قبل . وراح الحاج يستعرض فى ذاكرته كل الحراس الذين يعرفهم . سيف الطويل العريض الشرس ، ولا عبدالخالق النزيه صاحب المزاج ، وعبدالقادر رجل معتوه ومزاجى ، أحيانا يبدو طيبا للغاية ، وودودا أيضا ، وأحيانا يتحول الى وحش كاسر ! وعم توفيق العجوز الخبير فى فنون الرشوة والتهريب ، لم يبق الا الضباط . أبوبكر الشرير الذى يهوى الأذى أكثر من هوايته للنقود . وابراهيم الطيب المزاجاتى المدمن على الحشيش والأفيون .

وقرر الحاج محمود ان يفاتح الضابط ابراهيم فى الصباح ، وعندما وقف الحاج امام الضابط فى مكتبه الملحق بالعنبر وجد المسجون روبير فى المكتب ، فلم يفتح الموضوع واكتفى بالحديث فى موضوعات عامة لا صلة لها بالموضوع ، وأيام كثيرة مرت والحاج محمود يحاول ولكنه لا يستطيع ، وأخيرا قرر ان يتوكل على الله وأن يباشر المهمة بنفسه . فلم يبق على موعد

الافراج الا ثلاثة أشهر ، ولابد أن يجنى فيها ما يستطيعه حتى يعوض ما خسره فى سالف الأيام ، ولما كانت تجارته وقفا على الايراد الجديد من العسكر الهاربين من الخدمة ، ولما كان هؤلاء يسكنون فى دور ٦ فى عنبر « ب » فقد توجه الحاج الى هناك لكى يلقى نظرة على السوق قبل أن يبدأ العمل .

وراح الحاج منذ ان خرج من زنزانته يوزع السجائر ابتداء من شاويش الدور على شاويش العنبر الى عسكر البوابة الى حضرة الصول الذى يتخذ من الفناء مقرا مختارا له . وعندما وصل الى عنبر « ب » قدم السجاير لعسكرى فرفض . . وتعجب الحاج فهذا أول عسكرى فى تاريخ السجون يرفض السيجارة . ولو قالوا للحاج محمود أن الشمس تغرب فى المشرق لصدق ، ولكن عسكرى السجن يرفض سيجارة . . هذا هو المستحيل !

وفلسف الحاج محمود الأمر لنفسه ، الحاج من رجال السياسية ، فربما العسكرى يعرف ان الحاج من رجال السياسة ويعرف أيضا انه سيفرج عنه عما قريب ، والسياسة بحرها غويط ، ورجالها أحيانا فى السجن ، وأحيانا فى السلطة .

بعيد النظر هذا العسكرى ، وهو يحسب حساب الأيام القادمة ، ولكن ما أشد دهشة الحاج محمود عندما رفض شاويش عنبر « ب » أن يأخذ منه سيجارة . ورفض ايضا شاويش الدور . هذا عنبر ملائكة وليس مثل عنبر « أ ». وفكر الحاج أن يطلب النقل الى هذا العنبر ، وستكون التجارة من هنا أربح ، لأنها ستكون بلا مصروفات ، وصعد الحاج السلالم ، كان العسكر السجناء يتلطعون فى الدور ، ويجلسون فى كسل على الأرض ، وعندما اقترب الحاج محمود من الجماعة وألقى عليهم السلام ، ردوا عليه بفتور ، ولكنه عندما أخرج علبة الدخان من جديد نهضوا فى نشاط وتهافتوا عليه كالذباب . وعندما سألهم السؤال التقليدى :

ـ كلكم عساكر فى الجيش ؟ ردوا عليه جميعا بالايجاب . واستعد الحاج محمود ليبدأ الشغل معهم ، ولكن الكلمات احتبست فى حلقه . فقد هجم عليه المأمور والضابط أبوبكر وضابط آخر فى ملابس مدنية ، لقد كان الحاج اذن تحت المراقبة . وهذا هو السبب الحقيقى الذى جعل العسكرى والشاويش والشاويش الآخر يرفضون سيجارة الحاج ، ولم يدرك الحج محمود حقيقة الأمر الا فى الليل وامام النيابة . لقد كانت التهمة الموجهة له

هو الاتصال بعساكر القوات المسلحة لتكوين عصابات لمناهضة نظام الحكم . وعبثا حاول الحاج افهام السلطات انه انما كان يريد التجارة معهم والربح من ورائهم ، وهل يعقل أن يشتغل السياسى بالتجارة !؟ انها مؤامرة جديدة على نظام الحكم ! .

المحتويات